السنة السادسة (ذو الحجة سنة ١٣٥٨هـ — يناير سنة ١٩٤٠م) العدد الثالث

صحيفة دار العلوم

تصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

فهرس

العـــدد الثالث من السنة السادسة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فقيد الاسلام والسلام

الشيخ طنطاوى جوهرى

نعت الصحف إلى العالم المثقف فى الشرق وفى الغرب **الشيخ طنطاوى جوهرى** ، مات الشيخ وقد كان إنساناً يدرج على الأرض كغيره من الناس ، ولكنه لم يكن واحدا من المهرجين أو هواة الشهرة ، الذين يدقون الطبول ، ويسيرون مع الرياح ؛ ولذلك مات غير معروف من كثير من المصريين . كان يدرج على الأرض ولكن روحه كانت تعرج إلى السماء فتطل على مفكرى العالم فى الشرق وفى الغرب ، فعرفوه وقدروه ، بل حج بعض مفكرى الغرب والشرق إلى مصر ليتعرفوا إلى الشيخ طنطاوى وجها لوجه ، بعد ما تعرفوا إليه فى أبحاثه وأفكاره فى مؤلفاته الكثيرة وفى فلسفته الوادعة الداعية إلى السلام .

فقد جاء العلامة « كرستيان جوب » من لكسمبرج وحاضر فى جمعية الشبان المسلمين عن الشيخ طنطاوى . وقد نشر المقطم الأغر فى عدد مساء السبت ٨ يناير سنة ١٩٣٨ مانصه :

وختم محاضرته بالإشادة بآراء الفيلسوف الشيخ طنطاوى جوهرى فى هذا الموضوع وقال : إنه حضر إلى مصر هذه المرة خصوصا للتشرف بمعرفته شخصياً بعد ماعرفه عن بعد ، وترجم كتابيه « **أحلام فى السياسة** » و« **أين الانسان** » وبين أن الكتاب الأخير يبحث فى أعقد المشكلات العالمية بحثا عجزت أوربا إلى اليوم عن الإتيان بمثله » قال . . « إنى أعلن أن خير كتاب أخرج للناس فى هذا الشأن هو كتاب « أين الإنسان » الذى يرسم للعالم بأسلوب فلسفى عميق ، طريقه المستقيم إلى السلام الدائم الذى رسمه الله فى قوله تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

وكذلك أرسل إليه حضرة صاحب الجلالة رضا شاه بهلوى رسالة بقلم معالى وزير خارجية إيران ، وقد ذهب معالى الوزير المفوض لإيران إلى الشيخ طنطاوى فى منزله وسلمه الخطاب تكريما له ، واعترافا بفضله . وجلالة الامبراطور لم يشكر الأستاذ عفوا بل لقد رفع له تقرير مؤرخ ١٩١٤/٥/٤ عن قيمة كتاب « أحلام فى السياسة » .

ومن الغريب بل من المضحك بل من المحزن أن علماء أوربا يظنون بنا الخير كل الخير ، فهم حين يؤدون فى زعمهم بعض الواجب عليهم نحو الشيخ طنطاوى من تقاريظ لكتبه تنشر فى أمهات المجلات العلمية . ومن ترجمة

الكتبه إلى أكثر من لغة ، يعتقدون أننا نحن المصريين نقدر الشيخ طنطاوى ونحفل به،والقارىء يعرف مقدار هذا الظن الحسن من الصحة وإليك بعض ماجاء فى مجلة العلوم الشرقية للفيلسوف «سانتيلانه» الإيطالى فى سنة ١٩١١ تقريظا لكتاب(أين الإنسان) فقد ابتدأ التقريظ بعبارة يندى لها جبين المصريين المثقفين إذ يقول :

« ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية (دار العلوم) فهو ذلك الكاتب النحرير والمحرر الشهير،ذلك الإنسان ذو العقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركةالسياسيةالاجتماعية التىانتشرت فى كافة طبقات الشعب الإسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية ، تلك الحركة التى ترمى إلى الاستقلال السياسى والإصلاح الدينى طبقا لمنهج مرسوم بعيد المدى، مشوب بشىء من الإبهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وماجاء به القرآن الكريم ، إلى أن قال « فما دون فى هذا المعنى كتابان جديران بالذكر وهما « نظام العالم والأمم» و « نهضة الأمم وحياتها » .

وآخر ماصدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب «أين الإنسان » ذلك الكتاب الحديث الذى انتشر منذ عهدقريب،وهو الذىأردنا التعريف عنه أخيرا . . ثم قال « والحق يقال ،إنهلعمل جليل عظيم فى قالب اجتماعى سياسى،ليس موجها إلى المصريين فقط بل للعالم كله ؛ لأن المسألة التى يريد حلها هى مسألة العالم بالإجماع » .

وقال فى صفحة ٧٧٣ بعد أن لخص الكتاب مانصه :

هذا كتاب الشيخ طنطاوى جوهرى الذى أردنا أن نوسع له فى مجلتنا

وماهى بالعادة المتبعة لديها ؛ لأن ذلك الكتاب من الكتب العظيمة الدالة فى الوقت الحاضر على مبلغ أفكار شعور الطبقة الراقية الإسلامية » .

وقد كان للشيخ طنطاوى عدة نواح: ناحية إسلامية وطنية . وناحية عالمية اجتماعية ، فقد جاهد فى رفعة شأن الإسلام ، والانتصار لمبادئه . فمن الكتب التى ألفها وأصدرها فى هذه الناحية تفسيره المسمى الجواهر ، إذ بعد أن أحيل إلى المعاش انكب على تفسير القرآن حسبة لوجه الله،ومزج علوم الأمم حديثها وقديمها بالقرآن،رابطا كل ماجد من مختلف النظريات فى مختلف الفنون بمعانى أدبه ، كاشفا عن بعض أسراره .

ويشهد له التاريخ بأنه كان من أخلص أنصار القضية المصرية،ومن العاملين على استقلال البلاد استقلالا لاتشوبه شائبة، فله أناشيد وطنية كانت تردد أيام مؤسس النهضة المصرية مصطفى كامل وقد نشر تباعا فى جريدة اللواء كتابه « نهضة الأمة وحياتها » توجيها للأذهان وبعثا للعزائم .

وقد قدمت إليك ماقاله العلامة « سانتيلانة » معترفا بأن الشيخ طنطاوى من رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب الإسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية .

وإليك ماجاء فى كتاب مفكرى الإسلام للبارون (كرادى فو) فى المجلد الخامس منه تحت عنوان :

وصف إجمالى للنهضة المصرية الحديثة ثم قال :

« وللشيخ طنطاوى جوهرى القدح المعلى نذكره هنا قبل الكلام على كتابه « أين الإنسان » ثم قال « إننا سنبين ثلاثة المظاهر الرئيسية لتطور

مصر الحديث » ثم كتب أمام المظهر الثانى « العناية التى أظهرها رجلان من رجال الدين وهما الشيخ محمد عبده والشيخ طنطاوى فى تمثيل الدين الإسلامى وتأثيره فى النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث » .

رحمه الله رحمة واسعة وعوض دار العلوم خيرا فى فقده .

محمود الطنبجى

مدرس بالخديوية

نهج التفكير العربي فى الأدب

للأستاذ الدكتور أحمد ضيف

وكيل دار العلوم

كانت حياة العربى حياة بسالة وشجاعة ، وحياة نجعة وارتحال تدعوه إلى الدفاع عن نفسه وأهله ، ولم يكن يعنى بشىء عنايته بحفظ كرامته . يعيش عيشة الأبطال ، وعيشة البدو والرعاة : بين جمله وناقته ، وسيفه ورمحه ، بعيداً عن الحضارة وزينتها ، والعلوم وشكوكها ، فكانت حياته أشبه بحياة خيالية شعرية ، تشبه من بعض الوجوه تلك الحياة التى رسمها هوميروس فى أساطيره وسطرها فى قصته المشهورة « بالإلياذة » .

وكانت تلك الحياة يلائمها التحدث عن النفس ، والتغنى بالفضائل ، من كرم وشجاعة ، وعلو فى الهمم ، وفخر بالأحساب . وكان العربى بفطرته فصيحا بليغا ، فتربى لديه ذلك الأسلوب الخطابى ، واتخذ لسانه عدة للإشادة بنفسه وقومه ، ومزج ذلك بتأملاته فى الحياة ، وإلهاماته الفطرية : من حكم ، وأمثال ، وعبر ، ثم بأثر المنظورات فى نفسه ، فكان ذلك هو شعره الجميل ، وأثره البليغ.

كذلك نشأ الفكر العربى فى دائرة محدودة متصلة تمام الاتصال بحياته الفردية ، واستمد كل آرائه منها ، فكانت منبت فكره ، ومورد أخيلته ، ومهبط وعيه النفسى : فى شعره ، وأحاديثه ، وضروب الكلام ، وفنون التعابير ؛ حتى كانت هذه الحياة الخاصة به هى كل الأدب العربى ، الذى يتحدث فيه الشاعر عن ميوله وأهوائه ، وحبه وبغضه ، ووصفه لما يرتسم فى نفسه من مظاهر

الكون وجماله ؛ فتجمعت قوة التفكير لديه فى كل ماله صلة بحياته الفردية ، فتغنى فى شعره بكرم أصله ، وطيب أخلاقه ، وعلو همته ، وقوة شجاعته ، وإخلاصه فى حبه ، وتمدحه بميوله الغرامية فى شيء من الشجاعة وطهارة النفس ، فكانت كل أغراضه فى كلامه الفنى العميق ترمى إلى التحدث بنفسه وقوله ، كما قال السموءل :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

. . . . . .

وقد تكون هذه المعانى وأمثالها مما هو معروف فى شعر العرب : من وصف الحروب والنضال بين الأفراد والقبائل — ليست وصفا لحياة الشاعر وحده ، بل وصفا لحياة قومه وعشيرته ، ممزوجة بحياته الفكرية ، ومحتوية على كل مايجول بخاطره ، ولكنها صورة لنفسه قبل أن تكون صورة لغيره .

وهذه المعلقات وأمثالها من الشعر الجاهلى والإسلامى صورة من هذا الشعر المملوء بالمعانى والأغراض المختلفة فى القصيدة الواحدة التى ترجع كلها: إلى بث روح الشاعر ، ورسم حياته النفسية .

لهذا يمكن القول بأن التفكير العربى فى جملته يدل على نزعة فردية . الغرض منها التحدث عن النفس لا عن الحياة الإنسانية العامة ؛ ولكنه بوصف طبيعته الإنسانية قد يندفع لغير قصد ولا مأرب إلى ذكر بعض معانى الحياة العامة ، ورسم صورها . ولشدة ذكاء العربى وصفاء قريحته ، وقوة شعوره — لا تكاد تجد حكمة من الحكم ، أو مثلا من الأمثال ، أو جولة من جولات الفكر الانسانى — إلا منبثا فى طيات كلامه ، وهذا من مميزات الفكر العربى التى جعلت آداب العرب جزءا من التفكير الانسانى العام .

ألست تجد فى كلام زهير هذه النزعة الفلسفية الممزوجة بالشعور الفردى؟

فبينما تراه يدعو إلى المحافظة على النفس والدفاع عنها إذ يقول :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

تراه ينصرف إلى جهة من جهات التفكير العام حين يقول :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ومثل هذا كثير فى أساليب التفكير العربى ، وهو روح أدب العرب ، ذلك الروح الذى تمشى فى جميع عصور اللغة ، وتغلب على كل نزعة أخرى . وقد بقيت هذه النزعة الفكرية دعامة الأدب العربى .

فلما امتد سلطان الإسلام ، وجاء عصر بنى أمية ـ انتقلت هذه النزعة من ربوع نجد والحجاز وتهامة ومكة والمدينة ، إلى دمشق وبلاد الشام ، وانصبغت بصبغة إسلامية ؛ لأن الخلاف الذى كان بين القبائل البدوية من أثر البغضاء والعصبية ، ظهر ثانية على ألسنة الشعراء فى لباس دينى سياسى . وكانت حركة الشعر أدل ماتكون على هذه العصبية أو الأطماع السياسية ، كما كانت الكتابة والخطابة صورة لهذه الأطماع والمذاهب التى تدل فى جملتها على النزعة الفردية أو القومية العربية التى لاتدعو غير العرب إلى الاهتمام بها .

أما فى العصر العباسى فكان من لوازم هذا التغيير الذى حصل من نقل العلوم والفنون ، وانتشار الفلسفة ، وظهور المذاهب العقلية والاجتماعية ، وانتقال العرب من حياة بدوية إلى حياة حضرية ـ أن كان لذلك أثر فى الحياة الفكرية والأدبية .

أما فى الحياة الفكرية فسنعرض لما حصل فيها من انقلاب فى وقت آخر . وأما فى الأدبية فنستطيع أن نقول : إن التفكير العربى لم يتغير فى جملته ، ولم يختلف اختلافا كليا عما كان عليه منذ نشأته : من تسلط النزعة الفردية عليه ، والرجوع إلى منبع الفكر العربى من حيث الأخيلة ، والمعانى الجزئية ،

والموضوعات أو الأغراض التى كانت معروفة إذ ذاك ، بل رجع الأدباء — ولاسيما الشعراء — إلى طريقة التعبير التى كانت معروفة ، وإلى الصناعة اللفظية ، وجعلوا الشعر القديم نموذجا لهم ، ومثلا أعلى ينسجون على منواله ، وتقيدوا بكل شىء عربى قديم ، حتى فى طريقة التفكير والخيال التى تختلف باختلاف كل إنسان . فصار الشعر تحدثا عن النفس ، وصناعة متعملة ، وصار الشاعر إذا أحب أو كره ، أو مدح أو ذم — محتذيا نمط العربى فى شعوره وإحساسه .

ولكن هذه النزعة وهذا التمسك بالأسلوب العربى ، حفظ اللغة العربية من الضياع ، وحفظ مافيها من جمال وطلاوة ، وكان صورة تاريخية للفكر العربى البدوى ، وموردا للكتاب والشعراء يرجعون إليه ، ويمدهم بالمعانى والأخيلة البديعة .

هذا فى الشعر : أما فى النثر فلم تحى فيه روح البداوة حياةطويلة ، ولم تعش فيه هذه القريحة العربية الخالصة أكثر من قرن ، بل لقد انصبغ بصبغة فكرية جديدة منذ ظهر القرآن الكريم ، فتمشى وراء الأزمان والأيام ، وما يحدث فيها من تقدم وارتقاء فى الحضارة : من علوم ، وفنون ، وحياة اجتماعية وسياسية ؛ لأنه لسان الدهر ، وترجمان الحوادث ، وتكأة العقل البشرى . يتغير بتغير العقول ومايحدث فيها من انقلاب فكرى .

لذلك لم يثبت على حال واحدة : فى موضوعاته ، أو فى أساليبه الصناعية ، أو فى أخيلته ، أو أساليب التفكير فيه ؟

أحمد ضيف

الزبير بن عبد المطلب بن هاشم

للأستاذ الجليل أحمد يوسف نجاتى
الأستاذ بدار العلوم سابقا
وكلية اللغة العربية الآن

يروى أن معاوية بن أبى سفيان رحمه الله سأل يوما بعض جلسائه من العارفين بالنسب وبيوت العرب عن المنجبات وعن البيوتات، وحظر عليهم أن يتجاوزوا فى المنجبات ثلاثا وفى البيوتات ثلاثة، فعدوا فى المنجبات:

(ا) فاطمة بنت الخرشب[1] الأنمارية أم الكملة من بنى عبس؛ وهم الربيع الكامل، وعمارة الوهاب، وقيس الحفاظ، وأنس الفوارس بنو زياد بن عبد الله من عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان.

(ب) وخبيئة بنت رياح الغنوية[2]، وهى أم ربيعة الأحوص، وخالد الأصبغ، ومالك الطيان[3]، وربيعة الجواد بنى جعفر بن كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة.

(ح) وماوية بنت عبد مناة بن مالك بن زيد بن عبد الله بن دارم بن عمرو ابن تميم، وهى أم لقيط، وحاجب، وعلقمة، ومعبد بنى زرارة بن عدس بن زيد ابن عبد الله بن دارم بن عمرو بن تميم. وكأنهم راعوا ما بين بنى هاشم وبنى أمية ابن عبد شمس من المنافسة، فلم يعرجوا على من أنجب لهاشم أو بنيه. ولو كنت أنا

---

(١) الخرشب لقب عمرو بن النضر بن حارثة من بنى بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان، والخرشب فى اللغة الرجل الشديد الجافى، والطويل السمين.

(٢) نسبة إلى غنى بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان. و (خبيئة) يصحف فى أكثر الكتب (حية)، (حبيبة) وغير ذلك وكله تحريف خاطىء.

(٣) (الأحوص) من الحوص وهو صغر العينين وضيقهما. و (الاصبغ) لقب به خالد لشامة بيضاء كانت فى مقدمة رأسه، و (الطيان) لقب به مالك لأنه كان طاوى البطن.

المسئول لطمعت فى حلم معاوية وحسن سياسته ولطف مداراته ، فاخترت المنجبات نساء عبد المطلب الثلاث ، وهن :

(ا) نتيلة [١] بنت جناب بن مالك بن عمرو بن عامر بن زيد مناة التى ولدت لعبد المطلب ابنيه العباس وضرارا [٢] .

(ب) هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، أم : حمزة ، والمقوم، [٣] وحجل ،وصفية ، أولاد عبد المطلب .

(ح) فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم (الزبير بن عبد المطلب) وأخويه أبى طالب وعبد الله والد رسول الله ﷺ . فإن قالوا : إنهم لا يدعون لمرأة منجبة حتى تنجب ثلاثة — عددت من نساء عبد المطلب الاثنتين الأخريين، فإن أبيت الجمع بين ضرتين آثرت بالذكر واحدة منهما أراها أشرف نسباً وأكرم حسباً ، وأعرق أصلا، وأنجب ولدا ، ألا وهى السيدة فاطمة المخزومية ، فعندى أنها خير المنجبات اللاتى ولدن ثلاثة (دع عنك بناتها الخمس أخوات هؤلاء السادة الثلاثة ، وهن البيضاء أم حكيم ، وعاتكة ، وبرة ، وأميمة ، وأروى ، لا هضما لحق الجنس اللطيف ولا غمطا لمنزلة هؤلاء السيدات ، ولكن لأن معاوية إنما يريد من أنجبت بنين ، ولأن آثار إخوتهن الثلاثة جد ظاهرة واضحة، وقد

(١) نتيلة علم منقول من مصغر نتلة : واحدة النتل وهو بيض النعام كانوا يملئونه ماء فيدفنونه فى المفاوز البعيدة من الماء وذلك فى الشتاء . فاذا سلكوها فى القيظ استثاروا البيض وشربوا مافيها من الماء ، وقال الأزهرى : أصل النتل التقدم والتهيؤ للقدوم فلما تقدموا فى أمر الماء بأن جعلوه فى البيض ودفنوه سمى البيض نتلا — ويصحف بعضهم هذا الاسم بثاء مثلثة (نثيلة) وهو خطأ .

(٢) توفى ضرار حدثا قبيل الاسلام .

(٣) كان حجل بن عبد المطلب يلقب الغيداق لسعة خيره وكثرة ماله ، ومات ولم يعقب ، وكذا أخوه المقوم لم يعقب إلا بنتا اسمها هند .و(صفية) بنت عبد المطلب لم يسلم من عماته صلى الله عليه وسلم على الأرجح سواها ، واختلف فى أختيها عاتكة وأروى . (وصفية) هى أم الزبير بن العوام ، وقتل زوجها العوام بن خويلد فى حرب الفجار قبل البعثة وعاشت صفية كثيرا ، وتوفيت سنة عشرين فى خلافة عمر بن الخطاب .

أنجبوا من سلالتهم وذرياتهم من استمر شرفهم وفضلهم مدى الأزمان حتى اليوم) .

فلئن كان هؤلاء المنجبات اللائى عدهن جلساء معاوية قد ولدن رجالا حفظ التاريخ لهم كثيرا من أعمال البطولة والشجاعة والكرم ، وخلدت صحائفه ذكرهم بما كان من عظيم آثارهم فى الجاهلية - إن لبنى فاطمة بنت عمرو المخزومية أن يفخروا بمثل ذلك وأعظم منه ، بل لقد أربوا عليهم بكثير من المحاسن والمآثر ، وفاقوهم بشتى الفضائل والمناقب ، وأنجبوا ذرية مباركة طيبة طابوا أصولا وفروعا ، وكرموا أعماما وأخوالا ، وأتوا من جلائل الأعمال وعظيم الفعال ، بما كان أثره أعظم وأحسن ، وعاقبته أجل وأشرف من أعمال بنى المنجبات الآخرين ، بل إن لهم لأبين الأثر وأظهر الصنع فى نهضة الأمة العربية وعلو شأنها ورفعة قدرها ، وإن لهم للبلاء الحسن والسعى الحميد المشكور فى هداية الناس إلى دين الله ونصرته وانتشاره ، وفى رقى لغته وعلومها وآدابها حتى كانت الأمة العربية بحق خير أمة أخرجت للناس؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . ولا غرو فى ذلك فكل مفكر منصف فى الناس يقول :

قريش خيار بنى آدم   وخير قريش بنو هاشم
وخير بنى هاشم أحمد   رسول الإله إلى العالم

ولسنا الآن بصدد التفصيل لحياة كل واحد من بنى عبد المطلب وبناته ، فإن لذلك مجالا فسيحا لا تتسع له هذه الصحيفة (وسنعنى بذلك إن شاء الله فى رسالة خاصة جامعة ، ونخص من بينهم أبا طالب برسالة أخرى مستقلة نسهب القول فيها ونشرح حياته وماله من أثر فى الدين واللغة والأدب: نثره ونظمه وعسى أن يكون ذلك قريبا بعونه تعالى) .

وإنما يعنينا الآن القول فى - **الزبير بن عبد المطلب** - فقد كان هو وشقيقه أبو طالب أشعر بنى عبد المطلب ، بل كانا فى عصرهما أشعر بنى هاشم على

قلة الشعراء فيهم [١] وخاصة قبل الإسلام.

كان الزبير بن عبد المطلب أسن أشقائه الثلاثة — وأصغرهم عبدالله والد رسول الله ﷺ اختضر شابا عن نحو ٢٥ سنة وابنه محمد ﷺ جنين فى بطن أمه، وقيل بل كان طفلا فى المهد حديث الولادة ويستدل قائل ذلك برجز منسوب إلى عبد المطلب يوصى ابنه عبد مناف «أبا طالب» بمحمد بن أخيه عبدالله وقد حضرت عبد المطلب الوفاة، هو:

أوصيك يا عبد مناف بعدى بمُوتَم بعد أبيه فرد
مات أبوه وهو حلف المهد

فرحمة الله على ذلك الشباب النضْر الذى صوح به البلى، وتلك الحداثة الغضة التى أزوى بهجتها بطن الثرى.

وثلاثتهم — بل بنو عبدالمطلب جميعا — كانوا يزينهم مع شرف البيت وأصالة محتده: جمال الوجوه وصباحتها، وكرم الأيدى وسماحتها، وحسن الأخلاق وسجاحتها، وكلهم كان فى زمنه عديم النظير منقطع القرين، إذا رفعت راية لمجد تلقاها باليمين، له من طيب العرق وكرم المنصب مايعطر به بأنف شامخ، وتتناول يداه به الثريا قاعدا غير قائم.

نمته العرانين من هاشم إلى النسب الأصرح الأوضح [٢]

---

(١) ومن شعراء بنى هاشم من ذرية عبد المطلب أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وقال أبو عبد الله ابن سلام الجمحى فى طبقات الشعراء: «وأشعار قريش أشعار فيها لين تشكل بعض الاشكال» ثم قال: «والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا» — وقال أيضا «وكان أبو طالب شاعرا جيد الكلام. وأجمع الناس على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر والحاصل من شعره قليل».

(٢) (العرانين) جمع عرنين وهو السيد الشريف، والعرنين فى الأصل الأنف أو ماصلب من عظمه و (النبع) شجر من أشجار الجبال صلب العود رزينة ثقيلة فى اليد، كانوا يتخذون منه أجود القسى ويصنعون من أغصانه أحسن السهام. و (والأبطح) والبطحاء فى الأصل كل مسيل فيه حصا دقيقة. وبطاح مكة شعب واسع بين أخشبيها (الأخشبان جبلان هما أبو قبيس وقعيقعان، وأبو قبيس هو الجبل المشرف على الصفا — وكانت قريش قسمين: قريش البطاح وهم النازلون بين أخشبى مكة. وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج هذا الشعب، وأكرمهما وأعلاهما شرفا قريش البطاح.

إلى نبعة فرعها فى السماء ومغرسها فى ذرا الأبطح

✿✿✿

ولد الزبير بن عبد المطلب حوالى سنة ٥٣٥ م (فهو أسن من ابن أخيه محمد ﷺ بنحو ٣٥ سنة) ونشأ كإخوته أبناء عبد المطلب بين بطاح مكة وشعابها ينعمون بجاه أبيهم شيخ البطحاء وسيد الوادى غير مدافع ، وينمون إلى ذروة المجد والعزمن قريش، وربى فى كنف والده، وعزة قومه وشرف أصليه من أسرتى أبيه وأمه ، فكان منذ حداثته فتى رماه الله بالخير ناشئا فأحسن لبسه ، وزان به نفسه ، وشب كما كان يشب أبناء البيوتات الراقية من فتيان قريش وشبانها أولى الفتوة والثروة، وذوى المروءة والقوة والنخوة، والموصوفين بالحماسة والكرم والميل إلى الصبوة ، فنهز فى شبابه معهم بدلوهم ، وأسام سرح صباه حيث أسام [1] بنو الكرام منهم ، بل كان هو قدوتهم وأسوتهم، وموضع التجلة والإكبار بينهم ، إذ كان معروفا فيهم أنه الذى جمع المجد من قطريه ، وضم من السودد طرفيه ، ومن استوفى شرف الأرومة بكرم الأبوة والأمومة، ومجد الخئولة والعمومة . والذى أتاه الله مع عز المحتد والنصاب مزية البلاغة ورقى الآداب ، فكان مع شهامته وشدته وشرف نفسه وعلو همته من أمتع الاخوان مجلسا وأطيبهم عشرة، عذب الشمائل، رقيق الطبع، كريم المجالسة، لمن جالسه حسن الخلق لمن جاوره :

كهل الأناة فتى السراة إذا غدا للروع كان القشعم الغطريفا [2]

وتقدم فتيان مكة إلى ما كان فى أيامهم موضع فخارهم ، وسبق إلى ما كان ميدان فتوتهم وكرمهم ، فتمدح بما كانوا يتمدحون به من معاقرة الراح، ومن وصف الندمان والاغتباق والاصطباح ، وافتخر بما لاغميزة فيه من شرف،

---

(١) نهز بالدلو فى البئر إذا ضرب بها فى الماء وحركها لتمتلىء ، والسرح الابل والأنعام يغدى بها ويراح فى المرعى ، و(سامت) رعت ، وأسامها أرعاها .

(٢) القشعم فى الأصل المسن من الرجال والنسور ، أو الضخم المسن منها ويطلق على الأسد لشدته وضخامته ، و (الغطريف) السيد الشريف والسخى السرى والشاب الكريم والفتى الجميل الظريف.

آبائه الصيد الكرام ، ومواقفه المحمودة فى ميادين الحروب والخصام، حرى صامع ذلك على العزة القرشية والمكانة الرفيعة الهاشمية، مقتصدا فى لهوه العف البرىء، يربأ بنفسه وبيته أن يجارى بعض من عاصرهم من ذوى الخلاعة الماجنة ؛ فلم يكن مثل امرىء القيس أو طرفة بن العبد مثلا ، بل ولا مثل تربه أبى الطمحان القينى وإن كان نديما له، ولكنه كان ربما أجاب داعى الشباب والصبا :

فراح ثقيل الحلم شهما مرزأ وباكر مملوءا من الراح مترعا [١]

فمن شعره فى ذلك الطور من حياته قوله يصف زق خمر ويمدح نديما له ويثنى عليه :

وأسحمَ من راح العراق مملأٌ محيطٌ عليه الخيش جلْدٌ مرائره [٢]

---

(١) المرزأ هو الرجل الكريم الذى يصيب الناس خيره وينالون منه كثيرا ، وأترع الاناء ملاه حتى فاض .

(٢) (الأسحم) زق الخمر سمى به لسواده ، من السحمة والسحم والسحام أى السواد، و(الخيش) نسيج معروف ذو خيوط غلاظ يتخذ من مشاقة الكتان ومن أردئه ـــ والمشاقة ماسقط من نحو الشعر والكتان والقطن عند مشطه أو مشقه أى تسريحه وتخليصه وهى المشاطة أيضا ، و (جلد) شديد قوى متين (مرائر) جمع مريرة وهى الحبال المفتولة على أكثر من طاق ومالطف من الحبال وطال واشتد فتله ـــ يريد الزبير أن هذا الزق كان كما جاء من عند بائعة ، فهو بغلافه ومايحيط به ويشد عليه لحفظه، فكان الزبير ونديمه أول من فتح أغلاق خاتمه وافتض عذرته وأراق قانئ دمه ـــ وكانوا يطلون زقاق الخمر وجرارها بالقار أو الطين ، وذلك لحفظه ولئلا يرشح بما فيه :

ا ـــ قال القطامى [عمير بن شييم التغلبي من شعراء العصر الأموى] يصف جرار خمر .

استودعتها رواقيد مقيرة دكن الظواهر قد برنسن بالطين
مكالحات لحر الشمس قائمة كأنهن نبيط فى ثبابين

[رواقيد] جمع راقود وهو الدن الكبير ، أو إناء من خزف مستطيل يطلى داخله بالقار ، وهو لفظ معرب . [مقيرة] مدهونة بالقار أو القير و [دكن] جمع أدكن من الدكنة وهو لون يقرب إلى السواد و [الثبابين] جمع ثبان وهو سراويل صغير يستر العورة ، [برنسن] يريد سترن وغطين من الطين بما يشبه البرنس ، وهو كل ثوب رأسه منه ملتزق به .

ب ـــ وقال لبيد بن ربيعة من معلقته .

أغلي السباء بكل أدكن عاتق أوجونة قدحت وفض ختامها

صبحت به طلقا يراح إلى الندى إذا ما انتشى لم يختصمه معاقره(١)

يعنى زقا قد صلح وجاد فى لونه ورائحته لعتقه . وأغلى الشىء اشتراه غاليا ، وسبأ الخمر اشتراها كاسبأها ، ولايقال ذلك إلا فى الخمر خاصة . وراح عتيق و [عاتق] جيدة قديمة لم يفض أحد ختامها أو حبست زمانا فى ظرفها ، و [العاتق] أيضا الزق الواسع الجيد . و [الجونة] الخابية السوداء . و [قدحت] غرفت . وقدح القدر إذا غرف مافيها . وقدح ختام الخابية إذا فضه .

ح — وقال الأخطل :

أناخوا فجروا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا

[الشاصيات] جمع شاصية وهى الزقاق من شصى [كرمى] وشصا [كدعا] اذا انتفخ .

د — وقال الاخطل أيضا .

كمت ثلاثة أحوال بطينتها حتى اذا صرحت من بعد تهدار

آلت إلى النصف من كلفاء أترعها علج ولثمها بالجفن والغار

لها رداءان نسج العنكبوت وقد حفت بآخر من ليف ومن قار

[كمت] جمع كميت وهو الأسود . وجمع على [فعل] لتوهم واحد له على وزن [أفعل] وإن لم يلفظ به لأن الالوان يغلب فيها هذا البناء . والكميت اسم للخمر التى فيها سواد وحمرة ، وهو فى الأصل صفة غلبت عليها الاسمية . والاسم من الكميت الكمية لون بين السواد والحمرة . [صرحت] الخمر إذا تكشف زبدها وانجلى عنها فخلصت . قال الأعشى .

كميتا تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزباد

(الكلفاء) التى اشتدت حمرتها حتى تضرب إلى السواد ، من الكلف لون بين السواد والحمرة وهو الكلفة أيضا فهو أكلف ؛ والكلفاء أيضا من أسماء الخمر ، وأترعها ملأها حتى فاضت ، (الجفن) شجر طيب الريح ، وكذا الغار ، (ولثمها) يريد شدها وغطاها كأنه جعل لها لثاما ، ولثم الابريق ولثمه إذا شد الفدام — السداد — على بعض رأسه وترك بعضه للنفس — وصدر البيت الثالث كناية عن قدم العهد بالزق .

(١) (صبحه) جاءه صباحا ، وسقاه صبوحا ، وراح إلى الشىء يراح وارتاح إليه إذا نشط واهتزله وسربه — ويروى عجز البيت (لم يحتضره) أى لم يجده حصيرا أو حصورا أى بخيلا ضيق الصدر ، والحصور أيضا البرم ، وهو من لايدخل مع القوم فى الميسر ولايخرج معهم فيه شيئا ، والحصور الهيوب المحجم عن الشىء .

ه — وبهذه المعانى يفسر بيت الأخطل من القصيدة التى منها الأبيات السالفة .

وشارب مربح بالكأس نادمنى لا بالحصور ولا فيها بسوار

ضعيف بجنب الكاس قبض بنانه كليل على جلد النديم أظافره[١]

٭٭٭

هذا وقد تقدم وفاة والده ﷺ عبدالله، شقيق الزبير حوالى سنة ٥٧١[٢] وكان من سعد حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية[٣] أن شرفت بإرضاعه وأن كانت له أما، وكانت وسيطة فى بنى سعد كريمة من كرائم قومها، ولبث ﷺ مقيما عندها حتى بلغت سنه المباركة خمس سنوات فعادت به إلى مكة فكان مع أمه آمنة بنت وهب[٤] وجده عبد المطلب، نحو عام واحد، ثم أخذته أمه

(السوار) الذى تسور الخمر برأسه سريعا والسورة أيضا الوثبة و (مربح بالكأس) أى يعطى فيها ربحا ؛ وفى معنى بيتى الزبير والأخطل قول الآخر.

إذا صدمتنى الكأس أبدت محاسنى ولم يخش ندمانى أذاى ولا بخلى
ولست بفحاش عليه وإن يسيء وما شكل من آذى ندماه من شكلى

(١) صدر البيت كناية عن الرقة واللطف والكرم والجود، وعن سرعة الشرب وعدم حبس الكاس فى اليد طويلا ؛ وعجزه كناية كذلك عن حسن الخلق والرقة — وعن حسن ملاطفة النديم ورقة معاملته ولطف مداعبته ومزاحه.

(٢) كانت وفاته بالمدينة عند أخواله (أخوال أبيه) بنى النجار وكان قد ذهب ليمتار أهله تمر « وذلك فى زمن كسرى أنوشروان ملك الفرس العادل الذى كان حكمه (من سنة ٥٣١ — ٥٧٩)م »

(٣) حليمة بنت أبى ذؤيب عبد الله بن الحرث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناضرة بن فصية « تصغير فصاة وهى النواة » بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن. ورأت حليمة ابنها محمدا بعد ذلك مرتين إحداهما بعد تزوجه خديجة رضى الله عنها جاءته تشكو إليه السنة وأن قومها قد أصابهم الجدب فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات. والمرة الثانية يوم حنين — وزوج حليمة أبو النبى من الرضاعة هو الحرث بن عبد العزى من بنى سعد بن بكر بن هوازن أيضا أدرك الاسلام فأسلم وحسن إسلامه. وكذا ابنته الشيماء بنت الحرث السعدية.

(٤) آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى. توفيت بالأبواء موضع بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب — وأرضعته صلى الله عليه وسلم قبل حليمة « ثويبة » جارية عمه أبى لهب. وكان الرسول يعرف لها ذلك ويصلها من المدينة فلما فتح الله له مكة سأل عنها وعن ابنها مسروح فأخبر أنهما ماتا. وسأل عن قرابتها فلم يجد أحدا منهم حيا.

لتزيره أخوال جده عبد المطلب بالمدينة بنى عدى بن النجار (١) فماتت وهى عائدة به إلى مكة (وكذا كان شأن زوجها عبدالله من قبل ، فكأنهما كانا لتمازج روحيهما واتحاد قلبيهما على موعد) ولم تتجاوز سنه حينئذ ﷺ ست سنين ، فكان بعد أن استأثر الله بأبويه مع جده عبد المطلب موضع حبه وبره ، ومكان عطفه وحنانه ، وهو فى كل نشأته وجميع أدوار حياته قد صنعه الله على عينه ، وتولى حياطته ورعايته ، وأدبه فأحسن تأديبه وتربيته ، وأنبته نباتا حسنا ، ونشأه تنشئة صالحة مباركة ، وكان فى صباه يتردد على منازل أعمامه وخاصة منزلى عميه الشقيقين : الزبير وأبى طالب ، فكان يلاقى من كليهما الأب الرءوف الرحيم ، ومن زوجيهما الأم العطوف الرءوم ، ومن أولادهما الأخوة الكرام البررة والأصدقاء المخلصين الأوفياء ، وما من هؤلاء جميعا إلا من يكن لمحمد بن عبد الله الحب الخالص والمودة الرحيمة ولسان حاله ينشده

ما أمك اغتالت المنايا كل فؤاد عليك أم

واتفق فى أثناء ذلك أن دخل يوما على عمه الزبير وهو صبى كامل الخلق بهى الطلعة، مشرق الوجه، وضاء المحيا، فلاقاه عمه ووجهه يفيض بشرا ويتهلل سرورا ، وانشرح صدره لهذا الابن النجيب الذى خلفه أخوه عبد الله أصغر أشقائه ، فضمه وهو يبسم إليه ، ومسح بيد العطف والرحمة عليه ، وأجلسه فى حجره وقال هذا الرجز الذى كان فيه صادق الفراسة ذا نظر بعيد، وفكر سديد، وذهن ثاقب ورأى صائب ، بل كان فيه نقابا (٢) يحدث عن الغائب ، قال :

محمد بن عبدم عشت بعيش أنعم ودولة ومغنم

(١) أم عبد المطلب هى سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار [تيم الله] بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج . وهى أيضا أم أخته رقية بنت هاشم .

(٢) النقاب هو الذكى العالم بالامور الخبير بالأشياء الكثير البحث عنها والتنقيب عليها ، شديد الفطنة نافذ الرأى .

فى فرع عزّ أسنم مكرم معظم دام لجيش الأزلم(١)

ثم دخل عليه أخوه لأبيه العباس بن عبد المطلب وهو غلام فى نحو الثامنة من عمره فأقعده فى حجره وقال :

إن أخى العباس عف ذو كرم فيه عن العوراء إن قيلت صمم
يرتاح للمجد ويوفى بالذمم وينحر الكوماء فى اليوم الشبم(٢)
أكرم بأعراقك من خال وعم

وكان العباس أسن من رسول الله ﷺ بنحو ثلاث سنين ، ثم دخل عليه أخوه ضرار بن عبد المطلب وهو أصغر من العباس وشقيقه فقال :

ظنى بمياس ضرار خير ظن أن يشترى الحمد ويغلى بالثمن
ينحر للأضياف ربات السمن ويضرب الكبش إذا البأس ارجحن(٣)

ثم دخلت عليه ابنته أم الحكم وهى صبية صغيرة فقال :

ياحبذا أم الحكم كأنها ريم أحم
يابعلها ماذا يشم ساهم فيها فسهم(٤)

---

(١) عبدم ، زاد الميم فى عبد للتعظيم كما قد تزاد فى ابن لذلك فيقال ابنم . « أسنم » رفيع عال — ويقال . لا ألقاه لجيش الليالى أى آخرها أو الدهر كله . والأزلم والأزنم الدهر سمى به . لأن البلايا منوطة به والمنايا تابعة له ، وهو فى الأصل اسم للبعير أو ذكر الشاء يقطع طرف أذنه وتترك له زلة أو زنمة تبقى معلقة . وكانوا إنما يفعلون ذلك بكرام الابل ، ومؤنثه زلماء وزنماء ويقال للوعل (على الأصل). وللدهر الشديد الكثير البلايا (على المجاز). الأزلم الجذع . ووصف الدهر بالجذع لأنه باق على حاله لايتغير مع طوله فهو أبدا جذع لايسن. وقال الأخطل يخاطب بشر بن مروان بن الحكم.

يابشر لو لم أكن منكم بمنزلة ألقى على يديه الأزلم الجزع

ويقال أودى به الأزلم الجذع أى أهلكه الدهر ويقال ذلك لما ولى وفات ويئس منه .

وكان بشر بن مروان عاملا لأخيه عبد الملك على العراق وتوفى سنة ٧٤ رحمه الله .

(٢) « الكوماء » الناقة العظيمة السنام . والشبم البرد وشبم الماء « كفرح » برد .

(٣) مياس لقب ضرار والمياس الأسد المتبختر الذى يختال زهوا لقلة اكتراثه بمن يلقاه وكبش القوم زعيمهم وقائدهم ، وأرجحن : ثقل واشتد .

(٤) الريم الظبى ولد الغزال والأحم الشديد سواد المقلتين ، وساهم: راهن . وسهم : غلب وفاز — ويروى : يابعلها حزت الكرم .

ثم دخلت عليه جارية يقال لها أم مغيث فقالت له : مدحت ولدك وبنى أخيك وإخوتك ولم تمدح ابنى مغيثا فقال : على به ، فجاءت به ، فقال :

وإن ظنى بمغيث إن كبر أن يسرق الحج إذا الحج كثر
وينهب الأزواد من بر وتمر ويوقر الأعيار من قرف الشجر
ويأمر العبد بليل يعتذر ميراث شيخ عاش دهرا غير حر (١)

***

ولينظر القارىء تلك الأراجيز التى ارتجلها الزبير ارتجالا وليعجب بدعابته الجادة وبجده المازح وليستجل منها عواطفه الشريفة الرقيقة ، ويستشف منها أخوته العاطفة الشفيقة ، وأبوته الحانية الرفيقة ، وسيادته المتواضعة الضاحكة غير العابسة ، ذات الفكاهة الحلوة والنكتة المستمحلة ، تطيب نفس المولى منها بحسن الحديث ولطف المؤانسة ، ولقد اختص ابن الجارية مغيثا باطول أراجيزه حتى يرضى أمه ، وقد وصف ابنها بما نعته به وماتفرسه فيه مما هو أهل له . ومن هذه الأراجيز التى جاءت عفو الخاطر ووحى البديهة وإملاء القريحة تدرف بديهته الحاضرة المواتية ، وقريحته الوقادة الذكية ، وخاطره السريع الوثاب ، وبلاغته التى لا تكلف فيها ولا إجهاد طبع ، وتبدو خفة روحه العذبة اللعوب ، ونفسه الكريمة المرحة الطروب .

والآن ودع الزبير بن عبد المطلب سنيه الأربعين وقد بلغ أشده واستوى ، وصدف عن اللهو والصبا ، ونهى النفس عن الهوى وإن كان فى شبابه لعف الإزار ، شريف النفس ، ماعرفت العرب عنه ريبة وما علم أحد عليه من سوء .

---

(٤) أوقر الأعيار أى حملها . الأوقار جمع وقر وهو الحمل . وقرف الشجر قشره وكانوا يأكلونه زمن القحط والجدب . و « يعتذر » هنا بمعنى يصنع عذيرة وهى طعام من أطعمة الأعراب ويروى « يمذر » أى يمدر حوضه بالطين حتى لايشرب منه أحد . ومنه اسم « مادر » الذى يضرب به المثل فى البخل . وهو رجل من بنى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . وفيه قيل :

لقد جللت خزيا هلال بن عامر بنى عامر طرا بسلحة مادر
فأف لكم لاتذكروا الفخر بعدها بنى عامر أنتم شرار المعاشر

فيجوز أن يكون [يعتذر] هنا من عذر الشىء لطخه بالعذرة كما صنع مادر .

لا تألف الفحشاء برديه ولا يسرى إليه مع الظلام المأثم

ولما دخل فى سن الكهولة زمان العقل والحكمة وإبان الفكر والروية والتجربة ـ كان شعره حكيما جادا يلتى به على الناس النصيحة والعبرة، ويصوغ فيه الحكمة والموعظة الحسنة. ثم كان الزبير فى كل أطوار حياته الشجاع الصنديد الذى لاينثنى عن قرنه، والفارس الجرىء الذى لا يكهم [1] سيفه.

رفيق بداء الحرب، طب بصعبها إذا شت رأى القوم فهو جميع

وهو الحمى الأنف الذى يعز جاره، والأبى النفس الذى لا يهضم حقه ولا يغمز جانبه، يحمى ذماره وينصر مولاه، ويذود عنه بلسانه وسيفه ويحفظه ويرعاه، ويتغطى بظل جناحيه من أوى إليه والتجأ إلى حماه:

عطوف على المولى ثقيل على العدا أصم عن العوراء وهو سميع

وكانت قريش إذا سافرت فصارت على العقبة لم يتجاوزها أحد حتى تجوز قريش، فخرج حرب بن أمية بن عبد شمس ليلة، فلما صار على العقبة لقيه رجل تميمى من بنى حاجب بن زرارة، فتنحنح حرب وقال: أنا حرب بن أمية، فتنحنح التميمى وقال: أنا ابن حاجب بن زرارة، فجاز العقبة، فقال حرب: لاها الله [2]

---

(١) السيف الكهام والكهيم هو الكايل لايؤثر فى الضريبة. وكهمته الشدائد إذا جبنته عن الاقدام ونكصته، ورجل كهام وكهيم أى عي ثقيل بطىء لاغناء عنده ولا خير فيه.

(٢) قد يقسم «بها» فيقال: لاها الله مافعلت (أبدلت الهاء من الواو) ويجوز حذف ألفها فيقال هالله ما كذبت — و «الثنية» فى الأصل كل عقبة فى الجبل مسلوكة (والعقبة الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه) و «العقبة» هنا بين مكة ومنى بينها وبين مكة نحو ميلين ومنها ترمى جمرة العقبة — وحاجب بن زرارة تقدم ذكره وهو جاهلى قديم وابنه عطارد بن حاجب كان سيدا فى قومه (ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع فى طائفة من وجوه بنى غنيم فأسلموا) ومحمد بن عمير بن عطارد كان كاتبا لعبد الملك بن بشر بن مروان (وكان معاصرا الفرزدق وجريرا وكان يتعصب للفرزدق لأنه تميمى منهم وينصره ويبذل من ماله وجاهه لتفضيله والذود عنه (ومن ولده أبو عمرو أحمد بن عبد الجبار ابن محمد بن عمير بن عطارد كان محدثا ثقة نبيلا نشأ بالكوفة وحدث ببغداد) وكان مولده سنة ١٧٧ وتوفى سنة ٢٧٢

لا تدخل مكة بعدها وأنا حى ، فمكث التميمى حينا لا يدخل مكة وكان متجره بها ، فاستشار بمن يستجير من حرب ، فأشير عليه بعبد المطلب أو بابنه الزبير ، فركب ناقته وسار إلى مكة ليلا ، فدخلها وأناخ ناقته بباب الزبير بن عبد المطلب فرغت الناقة ، فخرج إليه الزبير وهو يقول : أمستجير فتجار ، أم طالب قرى فتقرى ؟ فقال التميمى :

لاقيت حربا بالثنية مقبلا والليل أبلج نوره للسارى
فعلا بصوت واكتنى ليروعنى ودعا بدعوة معلن وشعار(١)
فتركته خلفى وجزت أمامه وكذاك كنت أكون فى الأسفار
فمضى يهددنى ويمنع مكة أن لا أحل بها بدار قرار
فتركته كالكلب ينبح وحده وأتيت قرم مكارم وفخار
ليثا هزبرا يستجار بقربه رحب المباءة مكرما للجار(٢)
وحلفت بالبيت العتيق وحجه وبزمزم والحجر والأستار
إن الزبير لمانعى بمهند صافى الحديدة صارم بتار

فأجاره الزبير على حرب بن أمية ، فلما رأى حرب التميمى بمكة أراد طرده ، فعز على الزبير أن يعتدى حرب على من أجاره وهو يعرف أن ظلم الجار إذلال المجير ، فأهانه الزبير مع أنه كان صاحب أبيه ونديمه ، وخرج بكره عن سجيته ، وكأنه كان يقول لحرب بن أمية :

قد كنت تعرف منى فى الرضا رجلا حلو المذاقة فاعرفنى لدى الغضب

وأرغمه على ترك التميمى والأعراض عنه وعدم التعرض له . وكان مع

(١) أعلن مافى نفسه أظهره ويستعمل كثيرا فى المجاهرة بالعداء والجهر بقول السوء ، والشعار العلامة فى الحرب وغيرها

(٢) القرم السيد المعظم المهيب ، وهو فى الأصل الفحل من الإبل لايهان ، والمباءة المنزل و « رحب المباءة » كناية عن الكرم والسعة .

الزبير فى ذلك اليوم أخوه الغيداق ، ولولا أن حرب بن أمية لاذ بأبيهما عبد المطلب وقصده فى داره مستجيرا به ما سلم منهما ولناله منهما أذى .

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمس عشرة سنة هاجت حرب الفجار المشهورة بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان (ولم يكن لقريش فى أولها مدخل ثم تحققت بها) وسميت الفجار بما استحل هذا من الحيان قيس وكنانة فيه من المحارم بينهم فقد أحلوا الشهر الحرام (ذا القعدة) وقاتلوا فيه ففجروا . وكان الزبير بن عبد المطلب رئيس بنى هاشم وبنى المطلب بن عبد مناف فى هذه الحروب وأبلى فيها بلاء حسناء ، وكانت حرب الفجار فى أربعة أعوام متتاليات من نحو سنة ٥٨٦ ــ سنة ٥٩٠ م ، ثم تداعوا بعدها للصلح وجنحوا للسلم على أن يتعاهدوا ويتواثقوا ، فاصطلحوا وتراضوا (١) .

والزبير هو أول من تكلم فى حلف الفضول ودعا إليه ، وذلك بعد حرب الفجار بنحو أربعة أشهر ، وسببه أن العرب لشدة تعظيمها الحرم كانوا يؤمنون

---

(١) وشهد صلى الله عليه وسلم أكثر أيام الفجار مع عمه الزبير ، وفى ذلك يقول :

شهدت حرب الفجار وأنا غـــلام فكنت أنبل على عمومتى

(أى يناولهم النبل ويرد عنهم نبل عدوهم اذا رموهم بها) وكان صلى الله عليه وسلم لايصير مع عمه فى فئة الا انهزم من يحاذيها ويقال إنه لم يشهد الفجار من بنى هاشم سوى الزبير بن عبد المطلب ، وأثبت كثير من المؤرخين حضور أبى طالب مع ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم فى بعض هذه الأيام ، وقال فى الأغانى : وزعم قوم من قريش أن أبا طالب وحمزة والعباس بنى عبد المطلب شهدوا هذه الحروب ولم يرو ذلك أهل العلم بأخبار العرب اهـــ وسئل صلى الله عليه وسلم عن مشهده يومئذ فقال ماسرنى أنى لم أشهده أنهم تعدوا على قومى) وذلك أن بنى عامر بن صعصعة طالبوا أهل الحرم من قريش وكنانة بجريرة غيرهم وأتوهم الى حرمهم يلزمونهم ذنب سواهم فدافعوا عن أموالهم وذراريهم وعن أنفسهم . والفاجر لايكون المسعى عليه ولذلك أشهد الله نبيه ذلك الموقف وبه نصروا وإن لم يقاتل مع أعمامه بل إنما كان ينبل عليهم وقد كان بلغ سن القتال فلم يقاتل لأنها كانت حرب فجار وكانوا أيضا كلهم كفارا ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هى العليا ــ وجرح فى هذه الحروب حرب بن أمية ثم لم يلبث بعدها طويلا حتى مات .

ساكنه واللاجىء إليه محسنا أو مسيئا حتى أدى ذلك إلى عدوان بعض الطغاة من صناديد مكة على كثير ممن كان يفد إليها حاجا أو معتمرا أو تاجرا ، فلما تكررت هذه الحوادث اهتم لها الزبير وقال مالهذا مترك ، وحلف ليعقدن حلفا بينه وبين بطون من قريش يمنعون به القوى من ظلم الضعيف والقاطن من هضم الغريب الوافد ، ومما قاله فى ذلك :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم وإن كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

فاستجاب له العقلاء من قريش بعد أن فكروا فى الأمر وأجالوا الرأى فيما بينهم ورأوا أنه إن لم يوضع حد لحرمة من بالحرم خيف أن تنتهك حرمته ، ويجترىء عليه من ينتهز فرصة الأمن فيه من ذوى الترات الحاقدة والآراء الطائشة الجامحة ، وممن يعتد فى الباطل بجاهه وقوته ، ويعتز فى غير حق بنعرته وعصبيته ، ومن يزين له الغرور والصلف سوء عمله ، ويجر فى البغى والضلال رسنه وقد يكون ذلك سببا فى الاعتداء على سكان البلد الحرام ، وأن ترتكب فيه المظالم والآثام ولا يطمئن فى ربوعه الأمن والسلام ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة وتعاقدوا وتحالفوا على نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم وإنصاف القوى من الضعيف ، وأقسموا بالله جهد أيمانهم ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على من بغى عليه فكان فى الحقيقة حلفا اجتماعيا سياسيا دينيا ، بل كان أكرم حلف سمع به وأشرفه فى العرب . وأحسن عقد عقدته قريش فى قديمها وحديثها قبل الإسلام . وفيه يقول الزبير بن عبد المطلب أيضاً :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا أن لا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجار والمعتز فيهم سالم

ولقد شرف النبي ﷺ اجتماعهم هذا بحضوره وهو شاب ، وأثنى عليه بعد مبعثه ولم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقوياء لهم العدد والعارضة ، وحجة القوة الغاشمة الداحضة ، من مثل العاصي بن وائل السهمي وبعض قومه من بني سهم ، ومثل أبي بن خلف الجمحي الذي قتل يوم بدر مشركا.

هذا وكان أبو الطحمان[1] القيني (حنظلة بن الشرقي أحد بني القين بن جسر من قضاعة) تربا للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية ونديما له ، وكان أبو الطمحان شاعرا بليغا وفارسا ضاريا صعلوكا فكان الزبير يقبله على علاته ويجني ثمرات أدبه وبلاغته ، ويشذب من أطراف أخلاقه وعرامته [2] ، ويسمع الجيد من شعره ومدائحه ، ويسدي إليه كرائم أمواله ونصائحه ، وكان الزبير جوادا سمحا قد بوأ بيته في معلم واضح ، لا يخفى على الغادي والرائح يؤم ساحته الفسيحة ومباءته الرحبة من أجدب بهم الجناب ، ونبا بهم المكان وأحزن بهم المنزل ، ويقصده العفاة فيجدون منه رافدا معينا واسع المعروف ، وتعفوه الأضياف فيحتفل لقراهم ، ويكرم وفادتهم ويحسن مثواهم ، فوفد عليه أبو الطمحان مرة . وطال مقامه لديه فاستأذنه في الرجوع إلى أهله وشكا إليه شديد شوقه إليهم فلم يأذن له ، وسأله المقام . فأقام عنده مدة أخرى ، ثم أتاه يوما فأنشده :

الا حنت المرقال واتئب ربها تذَكَّرُ أوطانا وأذكر معشري[3]
ولو عرفت صرف البيوع لسرّها بمكة أن تبتاع حِمْضا بأذخر[4]

---

(١) أبو الطمحان هذا شاعر مخضرم مقل مجيد وله شعر مطبوع مختار وأدرك الاسلام وأسلم ولكنه لم يكن متين الدين لانه لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينله شرف صحابته ، وعمر طويلا .

(٢) العرامة والعرام الشراسة والشدة والأذى ، و [عرم] الرجل كنصر وضرب وكرم وعلم أشتـــد .

(٣) المرقال اسم لناقة وهو من أرقل إذا أسرع وأب إلى وطنه يؤب واتئب إذا اشتاق ونزع إلى وطنه ، وأب واتئب إذا تهيأ للذهاب وعزم عليه وتجهز

(٤) الحمض ماملح وأمر من النبات ، والأذخر نوع من الحشيش الأخضر طيب الرائحة كان يكثر بمكة والبيت كناية عن شدة حنين الناقة إلى الارتحال وتغير المرعى مع طيبها وجودتها .

أسرّك لو أنا بجَنْبَى عَنيزة وحمص وُضمرانِ الجناب وصفر[١]
إذا شاء راعيها استقى من وقيعة كعين الغراب صفوها لم يكدر[٢]

فلما سمع الزبير هذ الأبيات عرف شدة حنينه فأذن له أن ينصرف.

وكان مما تنكره قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضها بعضا ، فاتفق أن عبد الله بن الزبعرى[٣] السهمى (وكان فى الجاهلية قبل إسلامه هجاء جريئا مغرى بأثارة الفتنة) هجا يوما بنى قصى بشعر كتبه فى أستار الكعبة أو على باب الندوة ، يقول فيه :

ألهى قُصَيّا عن المجد الأساطير ومشية مثل ما تمشى السّفاسير[٤]
وأكلها اللحم بَحْتا لاخليط له وقولها رحلت عِير أتتْ عِير

فأنكر الناس ذلك وعرفوا أن قائله هو ابن الزبعرى ، فأرسل بنو هاشم عتبةَ بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف[٥] إلى بنى سهم فقال لهم : إن قومكم

(١) هذه كلها أسماء أماكن يود الشاعر أن يراها بعد طول بعده عنها .

(٢) الوقيعة المكان الصلب الذى يمسك الماء ، ونقرة فى جبل أو سهل فى متن حجر يستنقع فيها الماء فيكون أصفى وأعذب قال ذو الرمة :

ونلنا سقاطا من حديث كأنه جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع

(٣) عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى السهمى كان من أشعر قريش ، وكان قبل إسلامه من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه بلسانه ونفسه وكان يناضل عن قريش ويهاجى المسلمين ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاد وصدق فيه [والزبعرى] فى اللغة الشكس السيء الخلق والغليظ الضخم .

(٤) [السفاسير] جمع سفسير ، وهو حامل البريد المسرع يحمل الاخبار من بلد إلى بلد ، ويطلق على الخادم والتابع ونحوهما وهو لفظ معرب .

(٥) كان عتبة بن ربيعة فى الجاهلية كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، وكان سديد الرأى عاقلا ، ولكنه لما دعاه الاسلام إلى الله تعالى أفن رأيه وغوى بغواية قومه حتى قتل هو وأخوه شيبة وابنه الوليد كافرين يوم بدر — وكان ابنه أبو حذيفة رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام ومن فضلاء الصحابة

قد كرهوا أن يعجلوا عليكم فأرسلونى إليكم فى هذا السفيه الذى هجاهم فى غير ذنب اجترموا إليه ، فإن كان ماصنع عن رأيكم فبئس الرأى رأيكم ، وإن كان غير رأيكم فادفعوه إليهم ، فقال القوم : نبرأ إلى الله أن يكون ذلك عن رأينا ، قال عتبة : فادفعوه إذن إليهم ، فقال بعض بنى سهم إن شئتم فعلنا على أن من هجانا منكم أسلمتموه إلينا ، فقال عتبة : مايمنعنى أن أقول ماتقول إلا أن الزّبير بن عبد المطلب غائب بالطائف (أو باليمن) وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول ، ولم أكن لأجعل الزبير خَطَرا[1] لابن الزِّبَعْرَى ، فقال قائل منهم : أيّها القوم أدفعوه إليهم ، فلعمرى إن لكم مثل الذى عليكم ، فكثر فى ذلك الكلام واللغط ، فلما رأى العاصى بن وائل[2] أنّ الأمر ربما استفحل (وكان فى زمنه زعيمَ بنى سهم) دعا برُمّة فأوثق بها عبد الله بن الزبعرى ودفعه إلى عتبة ، فأقبل به مربوطا حتى وافى قومه ، فاستغاث ابنُ الزبعرى بنى سهم قبيلته فلم يغيثوه إبقاء على مودة بنى هاشم وغضبا على من تعدى حدود قريش قال منها بلسانه ، فجعل يمدح قُصَيّا ويسترضيهم حتى عفوا عنه ، ومما مدحهم به قوله:

كانت قريش بيضةً فتفلقت فالمُحّ خالصة لعبد مناف[3]

وقتل شهيدا يوم اليمامة سنة ١٢ عن نحو ٥٤ سنة ، وابنه محمد بن أبى حذيفة كان له شأن بمصر أيام عثمان حتى قتل سنة ٣٦ — وشيبة بن عتبة بن ربيعة أسلم يوم الفتح وكان من زهاد الصحابة وتابعيهم وتوفى زمن معاوية — وهند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة كانت من المهاجرات الأول ومن أفضل أيامى قريش

(١) الخطر المثل فى العلو ورفعة القدر ، ولايكون فى الخسيس والشىء الدون — وكذا [خطير] أى مثل وعدل ونظير .

(٢) العاصى بن وائل بن سعيد بن سهم [والد سيدنا عمرو بن العاص] كان من سادات قريش وأعيانها وحكامها ومن ذوى القدر والمكانة فيها ولم يوفق للاسلام كابنه بل كان أحد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم المكاشفين له بالعداوة والأذى ، توفى بمكة قبل الهجرة ، وكفى الله رسوله شره .

(٣) ويروى [فتفقأت] والمح جوهر البيضة الاصفر ، ومح كل شىء خالصه .

الخالطين فقيرهم بغنيهم والظاعنين لرحلة الإيلاف
والرائشين وليس يوجد رائش والقائلين هلم للأضياف (١)
عمرو العلا هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف (٢)

فأكرمه بنو عبد المطلب وأطلقه حمزة وكساه، ثم أغرى ابن الزبعرى أناس من قريش بقومه بنى سهم وقالوا له اهجهم كما أسلموك فقال:

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتى وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فود جناة الشر أن سيوفنا بأيماننا مسلولة لانشيمها
فيقطع ذو الصهر القريب ويتركوا غماغم منها إذ أجد بريمها (٣)
فان قصيا أهل مجد وثروة وأهل فعال لايرام قديمها
هم منعوا يوم عكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها (٤)

(١) راش الكريم الرجل أطعمه وسقاه وكساه، وراشه أعانه وقواه وساعده على معاشه وأصلح حاله ونفعه، وأصله من الريش كأن الفقير المملق والضعيف طائر مقصوص جناحاه فلا نهوض له، ويقال فلان لايريش ولايبرى) أى لاينفع ولا يضر .

(٢) عمرو العلا هو هاشم بن عبد مناف، وأسنتوا إذا قحطوا وأجدبوا، وهو من [السنة] وهى القحط قلبوا الواو تاء ليفرقوا بينه وبين قولهم أسنى القوم إذا أقاموا سنة فى موضع، و [عجاف] جمع أعجف وعجفاء من العجف وهو الهزال وذهاب السمن لسوء الغذاء من الجهد وشدة الحال — ويروى أن هاشما كان يستعين على إطعام الحاج بقريش فيرفدونه بأموالهم ويعينونه، ثم جاءت أزمة شديدة فكره أن أن يكلفهم أمر الرفادة فاحتمل إلى الشام بجميع ماله واشترى به كعكا ودقيقا ثم أتى الموسم فهشم ذلك كله وصنع به طعاما للحاج. وتوفى هاشم فى أواخر القرن الخامس الميلادى بمدينة غزة وكان قد خرج إلى الشام تاجرا ولم تتجاوز سنه زهاء ثلاثين سنة .

(٣) شام السيف أغمده، و [الغماغم] جمع غمغمة وهى أصوات الابطال فى الوغى عند القتال، و [البريم] لفيف القوم وأخلاطهم، واللفيف أيضا الجيش لأن فيه أخلاطا من الناس، أو لالوان شعار القبائل فيه أى راياتهم ذوات الألوان المختلفة .

(٤) يوما عكاظ من أيام حرب الفجار، و [الشول] جمع شائل وهى الناقة التى تشول بذنبها للقاح، أو جمع شائلة وهى من الإبل ما أتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر أو ثمانية فجف لبنها وارتفع

وإن كان هيج قدموا فتقدموا   وهل يمنع المخزاة إلا حميمها (١)

محاشيد للمغزى سراع إلى الندى   مرازبة غلب رزان حلومها(٢)

فلما قدم الزبير بن عبد المطلب من سفره وبلغه ما كان من ابن الزبعرى وقومه قال يفخر بقومه ويعرض ببنى سهم وبعض قبائل أخرى ويتوعد ابن الزبعرى ويتهدده إن لم يقلع عن غيه :

قومى بنو عبد مناف إذا   أظلم ماحولى بالجندل

لا أسد ـ لن يسلمونى ولا   تيم ولا زهرة للنيطل(٣)

ولا بنو الحرث إن مر بى   يوم من الأيام لاينجلى

يأيها الشاتم قومى ولا   حق له عندهم أقبل

إنى لهم جار لئن أنت لم   تقصر عن الباطل أو تعدل

وقال فى ذلك أيضا :

ولولا الحبش لم يلبس رجال   ثياب أعزة حتى يموتوا (٤)

ضرعها ولم يبق به الأشول أى بقيه من اللبن ، و (الهجان) من الابل البيض الكرام ، الهجان الخيار الخالص من كل شىء ، (القروم) جمع قرم وهو الفحل الذى يعفى من الركوب والعمل ويودع للفحلة والقرم من الرجال السيد المعظم .

(١) الهيج والهيجاء الحرب ، والحميم بالحاجة الكلف بها والمهتم لها الذى يعنيه شأنها قال الشاعر :

عليها فتى لم يجمل النوم همه   ولا يدرك الحاجات الا حميمها

(٢) محاشيد جمع محشود وهو من عنده حشد أى جمع من الناس ، و (المقرى) من القرى وهو إكرام الضيف ، وما يقدم إليه ، والمرازبة جمع مرزبان وهوالرئيس والفارس الشجاع . (الغلب) جمع أغلب وهو الغليظ الرقبة يوصف به الأسد أو جمع غلباء وهى القبيلة العزيزة الممتنعة .

(٥) الجندل موضع . و (النيطل) الداهية والموت والهلاك .

(٦) فى المراجع : ولولا (الحمس) ولكن قال ابن سلام إن الصحيح ولولا الحبش وهم الاحباش وذلك لانهم أخذوا ثيابهم ومتاعهم حين جاءوا يريدون هدم البيت فرماهم الله — و (الحمس) لقب قريش جمع أحمس وهو القوى الشديد الذي صلب وتشدد فى قتاله ودينه.

ثيابهـــم شمـال أو عباء بهـا دنس كما دنس الحميت[١]
ولـكنا خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت[٢]
وصـــبر فى المواطن كل يوم إذا خفت من الفزع البيوت
وكأس لو تبين لهـا كلاما لقـالت إننى لهم سـبيت
تبين لنا القذى إن كان فيها رصين الحلم يشربها هبيت[٣]
ويقطع نخوة المختال عنا رقاق الحـــد ضربته صموت
بكف مجـــرب لاعيب فيه إذا لقى الكريهـــة يستميت
وأفسد بطن مـــكة بعد أنس قراضبة كأنهم اللصوت[٤]

ولما حضر عبدَ المطلب الموت جمع بنيه وأوصاهم رسول الله ﷺ وكان قد أتم الثامنة من عمره، فاقترع عماه الشقيقان الزبير وعبد المطلب وألقيا أقلامهما (٥) أيهما يكفل محمد بن عبد الله، فأصابت القرعة أبا طالب ونال بذلك الحظ الأوفر، فضمه إليه مسرورا بحوز النجح وفوز القِدْح، وكان أبو طالب مشهورا بشدة العطف على أولى رحمه وصلتهم وفيه قيل من قصيدة مدح بها عبد المطلب وبنوه:

---

(١) الشمال جمع شملة مئزر من صوف أو شعر يؤزر به، (الحميت) وعاء السمن والزيت ونحوهما

(٢) الحبرة ضرب من البرود ثمين ذو نقش ووشى كان يأتى من اليمن.

(٣) الهبيت الذاهب العقل والأحمق ويروى البيت:

تريك قذى بها إن كان فيها بعيد النوم نشوتها هبيت

فيكون هبيت بمعنى هابت يعنى أن نشوتها شيء يهبت أى يحمق ويحير شاربها فيسكن وينام (والهبت) أيضا اللين والاسترخاء. الضربة الصموت التى تمر فى العظام ولا تنبو عن عظم.

(٤) القراضبة الصعاليك والفقراء جمع قرضوب. ويطلق على اللصوص أيضا. و (اللصوت) جمع لصت وهو اللص فى لغة طيء وهم الذين يقولون فى نحره للطس (طست).

(٥) القلم هنا بمعنى الزلم واحد الأزلام التى كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية، وهي سهام لاريش عليها.

وعبد مناف ماجد ذو حفيظة   وصول لذى القربى رحيم لذى الصهر

ومع هذا كان ﷺ يزور بيت عمه الزبير كثيرا فيجد من البر والمودة ومن العطف والحنو والشفقة ماجعله يدعو زوج عمه الزبير أمه، ويدعو ابنها عبد الله (ابن أمى).

ومن شِعْر الزبير (وفى كل بيت منه حكمة ناصحة ونصيحة حكيمة).

اذا كنت فى حاجة مرسلا   فأرسل حكيما ولاتوصه
وإن باب أمر عليك التوى   فشاور لبيبا ولاتعصه
ولاتنطق الدهر فى مجلس   حديثا إذا أنت لم تُحْصه[1]
ونص الحديث إلى أهله   فإنّ الوثيقة فى نَصّه[2]
وذا الحق لاتنتقص حقه   فإنّ القطيعة فى نقصه
وإن ناصح عنك يوما نأى   فلا تَنْأ عنه ولا تُقصه
وكم من فتى عازب عقله   وقد تعجب العين من شخصه
وآخر تحسبه جاهلا   ويأتيك بالأمر من فصّه[3]

وقد ينسب بعض الرواة شيئا من هذه الأبيات إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، ولكن الثقات ينسبون الأبيات كلها إلى الزبير ابن عبد المطلب، ولكنها توجد مفرّقة فى كثير من كتب الأدب غير مجتمعة وممن نص على أنها للزبير أبو هلال حسن بن عبد الله العسكرى المعروف توفى سنة ٣٩٥، فى كتابه (جمهرة الأمثال) عند كلامه على المثل (أرسل حكيما ولاتوصه) فقال: المثل للزبير بن عبد المطلب فى أبيات له معروفة، وأتى

---

(١) أحصاه بمعنى عقله وتدبر معناه وفكر فيه.

(٢) نص الحديث رفعه وأسنده إلى قائله، والوثيقة فى الامر احكامه والاخذ فيه بالثقة، قال الكميت يمدح مخلد بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة:

وخلائق منه إلى جيلة فى حسبى   ونعم وثقة المستوثق

(٣) فص الامر مفصله أى مخبره وحقيقته وأصله، أى أنه يفصله لك ويوضحه ويقفك على حقيقته ويأتي به من موضعه الذى خرج منه.

منها بخمسة أبيات ، ثم قال : فهذا قول الزبير . وقال غيره : إذا أرسلته ولم توصه ولم تعرفه فى نفسك وما تحتاج إليه فى حوائجك وكلفته أن يبلغ مرادك فيها فقد سمته إلى علم الغيب ، والصحيح أن يقال أرسل حكيما وأوصه ، كما قال الشاعر :

إذا أرسلت فى أمر رسولا فأفهمه وأرسله حكيما

وقال الحكماء : (الرسول دليل عقل مرسله) اه .

وأقول ليس غرض الزبير ترك الوصية وإفهام الرسول الحاجة وتبليغه المراد ، بل يريد أنه لحكمته وعقله وحسن اختياره ليس فى حاجة أن يوصى ببذل الجهد فى الظفر ولطف الاحتيال وحسن التصرف لإنجاز الحاجة والنجاح فيها — ثم أظن أن قافية البيت الذى أتى به مغيرة وهو من أبيات لأبى الأسود الدؤلى وهى :

إذا أرسلت فى أمر رسولا فأفهمه وأرسله أديبا
ولا تترك وصيته بشىء وإن هو كان ذا عقل أريبا
فإن ضيعت ذاك فلا تلمه على أن لم يكن علم الغيوبا

وقال آخر :

تخير إذا ما كنت فى الأمر مرسلا فمبلغ آراء الرجال رسولها
وردّد وفكر فى الكتاب فإنما بأطراف أقلام الرجال عقولها

وقال آخر وأصاب (إلا إذا أراد الحث على الرشوة فإن ذلك جناية وليست على تبعتها) :

إذا كنت فى حاجة مرسلا وأنت بأنجازها مغرم
فأرسل حكيما ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم

وقد قالوا : رسولك أنت إلا أنه إنسان آخر — وقال على بن أبى طالب رسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أبلغ ماينطق عنك .

ويروى أن قريشا لما أرادت بناء الكعبة حوالى سنة ٦٠٥ م قبل البعثة النبوية بنحو خمس سنين كانوا يهابون ذلك ويزعمون أنه كان بها حية فظيعة تخرج من بئر الكعبة التى كانت يطرح فيها مايهدى لها كل يوم فتشرق[١] على جدار الكعبة ، فلا يدنو أحد من بئرها إلا احزألت[٢] وكشت بصوتها وفتحت فاها ، فكان ذلك مما يهابونه أيضا فيقال إنها بيناهى ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله إليها طائرا (العقاب) فاختطفها وذهب بها ، فقالت قريش إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا ، وصحت نيتهم على هدمها وإعادة بنائها وقال الزبير بن عبد المطلب فى ذلك بعد أن تم البناء :

عجبت لما تصوبت العقاب إلى الثعبان وهى لها اضطراب[٣]
وقد كانت يكون لها كشيش وأحيانا يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الزجر جاءت عقاب تتلئب لها انصباب[٤]
فضمتها إليها ثم خلت لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه وليس على مسوينا ثياب[٥]

(١) تشرق قعد فى موضع تشرق عليه الشمس .

(٢) احزألت : رفعت ذنبها ، وكشيش الأفعى صوت جلدها إذا حكت بعضها ببعض .

(٣) التصوب الانحدار والانقضاض من علو إلى سفال .

(٤) تتلئب أى تقصد ، واتلأب على طريقه إذا لم يعرج يمنة ولا يسرة ، وكأنه منحوت من أصلين [تلا] إذا تبع ، [ألب] إذا أقام ، أو [أب] فهو قريب من هذا المعنى ، يقال أب أبابة إذا استقام وتهيأ فكأنه مستقيم مستمر على مايتلوه ويتبعه مما هو بسبيله ، والاسم من اتلأب [التلائبة] على وزن الطمأنينة والقشعريرة .

(٥) يريد مسوى البنيان ، ويروى [على مساوينا] وهو فى معنى مايروى أنهم كانوا ينقلون الحجارة إلى الكعبة وهم عراة ويرون ذلك ويتأولونه من باب التشمير والجد فى الطاعة ، والمراد من [مساوينا] السوءات ، فهو جمع مساءة [مفعلة] من السوءة ، والأصل مساوئ فسهلت الهمزة .

أعزبه المليــك بنى لؤىّ فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدى ومرة قد تقدمهــا كلاب
فبىّ أنا المليــك بذاك عــزّا وعند الله يلتمس الثواب

كأنى بك ترى فى هذه الأبيات صورة الحية بشعة منكرة رَقشاءالإهاب ذَعْف اللعاب تتشرق على جدران الكعبة وقد استراحت إلى شعاع الشمس وحرارتها تسمع كشيش جلدها إذا تحركت واضطربت، وفحيح فيها إذا صاحت وصوتت، قد رفعت ذنبها ولعبت به واشرأبت تتطلع بعنق دقيق صلب ورأس عريض مفلطح، وقد زاغ منها البصر: ورمت من عينيها بالشر والشرر وتحفزت للوثبة الفاتكة واللدغة القاتلة، وأنذرت من يدنو من حماها بالسم الذعاف الناقع والموت الزؤام العاجل(١) وقد تجهم وجهها واكفهر وعبس، وأدارت طرفا متوقدا كشهاب القبس، فاذاراعك هذا المنظر المفزع راقك رؤية العقاب الكاسر لقوة (٢) خدادية خافقة الجناح شديدة اليأس قد ساقها الله إلى هذه الحية الخبثية الظالمة وسلطها عليه فجاءت منقضة من عنان الجو، فأسفت(٣) إلى تلك الأفعى التى أرادت أن تؤذى فى الحرم، فبسطت عليها جناحى نقمة لا رحمة، وأنشبت بها منسريها، وعلقتها بين مدى حادة من أظافرها، وطاحت بها إلى حيث ينتقم الله من الظلم والعدوان، وتم لبيت الله الحرام البناء والعمران.

وسأل الزبير يوما عن رجل ظالم كان بمكة فقيل له قد مات، فقال: بأى عقوبة كان موته؟ قالوا: مات حتف أنفه، فقال: لئن كان ماتقولون حقاً

(١) السم الذعاف القاتل السريع الأثر، والموت الذعاف والذؤاف السريع الذى يعجل القتل. وكذا الموت الزؤام أى السريع العاجل والكريه المجهز.

(٢) اللقوة العقاب واسعة الشدقين والخفيفة السريعة الاختطاف. والخدارية الشديدة السواد. وهو من أسماء العقاب من الخدرة وهى الظلمة.

(٣) أسف الطائر دنا من الأرض فى طيرانه.

إن للناس لمعادا ينصف الله فيه المظلومين ويأخذ فيه للمظلوم من الظالم) وفى هذا دليل على إقراره بالبعث رحمه الله ٠

هذا ولما بلغت سن الزبير نيفا وسبعين سنة وذلك قبيل البعثة النبوية حوالى سنة ٦١٠ م كان الزبير زرعا قد نضج وآن حصاده وإن لم يرد إلى أرذل العمر (فقد مات أبوه عن أكثر من تسعين عاما) وأحس بدنو حمامه قال - وصدق - ينعى نفسه ويصفها ببعض ماتحلت به ، ويهدى ابنته إلى طريق رثائه :

ياليت شعرى إذا ماحمتى وقعت ماذا تقول ابنتى فى النوح تنعانى [١]
تنعى أبا كان معروف الدفاع عن الـ مولى المضاف وفكاكا عن العانى [٢]
ونعم صاحب عاف كان رافده إذا تضجع عنه العاجز الوانى [٣]

أى والله كان الزبير كما يقول وخيراً مما يقول ، كان شهما شجاعا أبيا ، وسمحا جواداً سخيا ، وجميلا وسيما بهيا ، وكان خطيبا شاعرا وسيدا حكيما عاقلا ، وهو فوق هذا وذاك المدافع عن حقوق قومه بقوة جنانه وبلاغة لسانه ، والذاب عن حوزة عشيرته والحانى على أهله ورحمه وإخوته ، وهو الناصر لقريش فى حرب الفجار ، والذى كان عونا لهم ورداً فى إدراك الطوائل والأخذ بالثأر ، بل هو الابن البار الذى يخفض لوالديه جناح الرحمة ، والأب الرءوف الذى يعطف على بنيه عطف محبة وحكمة ، والأخ الشفيق الذى يعطف على بنى أبيه ، والعم الرحيم اللطيف الذى لا جفاء ولا فظاظة فيه ، وهو المدلل لرسول الله ﷺ فى طفولته الرشيدة ، والمتفائل له بمستقبل باهر وحياة سعيدة ،

---

(١) الحمة من حم الأمر إذا قدر ومنه الحمام وهو قضاء الموت وقدره . وحمة الفراق ماقدر وقضى منه

(٢) المضاف من أحيط به فى الحرب من أضافه إلى الأمر إذا ألجأه . والمضاف أيضا هو الواقع بين الخيل والابطال وليس به قوة . والمحرج الملجأ المثقل بالشر والعانى الأسير .

(٣) العافى الرائد الطالب للمعروف . والضيف وكل طالب فضل أو رزق . وعفاه يعفوه إذا قصده طالبا معروفه ورفده أعانه وأعطاه . وتضجع فى الأمر إذا تقاعد عنه ولم يقم به . وضجع فى الأمر وأضجع قصر عنه ووهن . وتضاجع عنه تغافل .

يزين كل ذلك منه نفس شريفة أبية ، وهمة رفيعة علية ، وبعد مسافة فكر وروية ، وذوق سليم وطبع مستقيم ، وظن كاليقين يكاد يخترق به حجاب الغيوب ، ورأى ينير به ما أظلم من داجى الخطوب ، ورجوع إلى الله تعالى فيما يطرأ وينوب ، وإقرار خالص بربوبيته ، وإذعان خاضع لقدرته وعزته ، واعتراف صريح بالبعث والنشور ، وعلم أنه إلى الله تصير الأمور ، ولما قضى نحبه وترحل عن الدنيا قالت أخته صفية (١) ترثيه :

بكى زبير الخير اذ فات ان ... كنت على ذى كرم باكيه
لو لقطته الأرض مالمتها ... أو أصبحت خاشعة عاريه
قد كان فى نفسى أن أترك الـ ... موتى ولا أتبعهم قافيه
فلم أطق صبرا على رزئه ... وجدته أقرب إخوانيه
لو لم أقل من فى قولا له ... لقضت اللوعة أضلاعيه
فهو الشآمى واليمانى إذا ... ماحضروا ذو الشفرة الداميه

وقال ضرار بن الخطاب الفهرى (٢) رضى الله عنه يبكيه :

---

(١) صفية رضى الله عنها هى أم الزبير بن العوام تزوجها فى الجاهلية الحرث بن حرب بن أمية بن عبد شمس أخو أبى سفيان فمات عنها فتزوجها العوام بن خويلد بن أسد ومات عنها فى حرب الفجار ثم توفيت سنة ٢٠ فى خلافة عمر . وسمت ابنها الزبير باسم أخيها الذى كانت تؤثره وتحبه حبا جما وإن لم يكن شقيقها كذلك كنت ابنها الزبير بأبى الطاهر كنية أخيها الزبير أيضا فقد كان له ابن يقال له الطاهر كان من أظرف فتيان مكة وتوفى غلاما فى حياة أبيه . وبه سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه الطاهر — [وعبد الله] بن الزبير بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابى جليل ، وكان فارسا بطلا وحضر حنينا مع الرسول وكان عمره يوم وفاته صلى الله عليه وسلم نحو ثلاثين سنة وشهد قتال الروم فى خلافة أبى بكر وأبلى فى الجهاد أحسن بلاء . وقتل شهيدا يوم اجنادين سنة ١٣ رحمه الله — ويروى أنه دخل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكساه حلة واقعده إلى جانبه وقال [إنه ابن أمى وكان أبوه يرحمنى] وكان يقول فيه أنه حبى وابن عمى [وامه هى عاتكة بنت ابى وهب بن عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم فهى ابنة خال زوجها الزبير].

(٢) ضرار بن الخطاب بن مرداس من محارب بن فهر بن مالك القرشى كان أبوه الخطاب رئيس بنى فهر وكان ضرار من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المجودين بل لم يكن فى قريش

بكى ضباع على أبيـ ـك بـكاء محزون أليم
قد كنت أشهده فـلا رث السلاح ولا كهيم[١]
كالكوكب الدرى يعـ ـلو ضوءه ضوء النجوم
ذخرت به أعراقه ونماه والده الكريم[٢]
بين الأغر وهاشم وعين قد فرعا القروم[٣]

يريد ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب وهى صحابية جليلة تزوجها المقداد بن عمر (المعروف بالمقداد بن الأسود فولدت له عبدالله وكريمة، وقتل عبدالله يوم الجمل مع عائشة رضى الله عنهما وزوجها المقداد قديم الإسلام وشهد بدرا وله فيها مقام محمود مشهور وشهد أحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وشهد بعده فتح مصر وتوفى بالمدينة فى خلافة عثمان سنة ٣٣ هـ

وأختها أم الحكم بنت الزبير صحابية أيضا وتزوجت ابن عمها ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب فولدت له بنيه محمدا وعبد الملك وعبد المطلب — وزوجها ربيعة بن الحرث ابن عم رسول الله ﷺ صحابى جليل توفى بالمدينة سنة ٢٣ فى خلافة عمر، وبنوه الثلاثة أدركوا رسول الله ﷺ، وكان آخرهم وفاة

فى زمنه أشعر منه ومن عبد الله بن الزبعرى. وكان قبل إسلامه ينصر المشركين بلسانه وسيفه ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وله شعر كثير فى الغزوات قبل الفتح وبعده. وشهد مع أبى عبيدة فتوح الشام وتوفى فى أوائل خلافة عمر.

(١) أشهده أى أحضر معه فى الحروب والغزوات والسيف الكهيم والكهام هو الكليل لا يؤثر فى الضريبة ويروى [سليم] بدل كهيم فلعله من السلم بمعنى السلام وهو الاستسلام والانقياد والخضوع والاستخذاء.

(٢) يقال فلان فلان عرقه زاخروا فرأى أنه كريم يمنى إلى كرام. ويقال إن عرق الكريم ليزخر بالكرم ويروى (زحرت) بالحاء المهملة — يقال زحرت به أمه وتزحرت عنه إذا ولدته وانجبت به.

(٣) الأغر الرجل الكريم الأفعال الواضحها والشريف المشهور النقى العرض. وأراد بالأغر جد الزبير لأمه وهو عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم — وفرع كل شىء أعلاه. وفرع القوم شريفهم وسيدهم. وفرع القوم فرعا وفروعا علاهم بالشرف أو بالجمال. وفاقهم فى الفضل والكمال.

عبد المطلب بن ربيعة وكان يسكن المدينة ثم انتقل إلى الشام فى خلافة عمر ونزل دمشق وبها توفى سنة ٦٢ وروى عنه ابنه عبد الله بن عبد المطلب ابن ربيعة ، وروى عن عبد الله ابنه محمد الذى روى عنه ابن شهاب الزهرى وغيره رحمهم الله جميعا .

انتهى ماأردنا إيجازه من حياة الزبير بن عبدالمطلب ، وموعدنابالإطناب فى سيرته وأدبه وفى سيرة شقيقه أبى طالب قريب فى كتاب خاص إن شاء الله

احمد يوسف نجاتى
الاستاذبكلية اللغة العربية حالا
والاستاذ بدار العلوم سابقا

الموسيقا فى الأدب العربي

عرض و نقـــد و تحليل

— ٢ —

للأستاذ عبد اللطيف المغربي

وطالعتنى شهور نكدة عسراء ، غمرتنى بضروب من الأسى ، ورمتنى بغربة أذهلتنى وحشتها ، فنضب من نفسى معين السرور ، وتقلص عنى ظل الطمأنينة والدعة ، وأصبحت ضاحيا أقاسى فى عزلتى آلاما نفذت إلى صميم القلب ، فنَـدَّ عنى جميل الصبر ، وأعوزنى حسن التأسى ، فجعلت أروض النفس على ما يجمل ، وآخذها بوصايا الحكماء ،وأدب العلماء ، فلا تزيدنى إلا نفارا وإمعانا فى القلق ، حتى أعيانى أمرها وأشفقت عليها أن تكون بسبيل يدنى من التلف ، ويشرف بها على غاية الحياة .

وأراد الله اللطيف الخبير أن يأذن لليل هذه الغربة الساجى بالزوال ، وأن أعود إلى المغانى التى بينها درجت آمالى وأحلامى ، ونضوت فيها برد الشباب حميدا ، ونسجت من دواعيها ذكرياتى الخوالد ، فطابت النفس وقرت العين — وافتقدت صديقى القديم العصفور ، وطفقت أتلمسه فى الرياض وعلى شواطىء الأنهار وفوق غصون الأشجار ، وحول كل واد خصيب ونبات نضير ، حتى أعيانى طلبه ، فتقبضت فى إهابى حزينا يائسا ، واعتقدت أن ذلك الصديق حطمته بعد فراقنا حوادث الأيام وأنى غير ملاقيه . وهنا انبسطت أمامى

صفحة مودته النقية ، وتمثلت لى أخلاقه فى أبهى مظاهر الكمال ، فبكيت ماشاء الله أن أبكى ، وكان أروع ما أبكانى عليه خلال سمحة ظفرت بها فى عالم الطير وحرمتها فى عالم الإنسان ، خلال لم تشبها عوامل المدنية فتفتك بأسمى مافيها من معان روحية سامية ، وتجعل منها ما يشبه الهيكل المزخرف الخالى من الروح . فهذه خلال يصطنعها السواد الأعظم من الناس من وفاء وإخلاص وصداقة ومحبة ورحمة وتعاون وإيثار ، ثم هى تكاد تكون خلوا من معانيها ، وقد أفاض عليها النفاق وزخرف المدنية ماتتسع به وتضيق، وتعجب وتخدع، حتى تشابهت الأمور وأضدادها ، فشقى المجتمع الإنسانى بها لأنها لا تعدو أن تكون ألفاظا سيارة على ألسنة الناس لا تتصل بقلوبهم . ولقد دعا الرسل الكرام إلى الأخلاق الفاضلة وضربوا للناس أروع المثل فى التحلى بها وأرسل الحكماء والأدباء صيحاتهم الأخلاقية إلى الناس ، ولكن النفوس البشرية لاتزال أسيرة نوازعها فى الكثير من الناس ، وهى تتصور الأخلاق كما توحى إليها رغائبها ، فأصبح المجتمع الإنسانى يئن مما يلاقى من عدوان القوى على الضعيف ، والإعراض عن المحتاج ، وغلبة سلطان المادة على النزوات الروحية ، والتطاحن على الاستئثار بالمنافع ، حتى قلت الثقة بالصديق وأقفر القلب من الاعتماد عليه والاطمئنان إليه — فلا غرو أن يبكينى فقد صديق الطائر ذى الفطرة النقية والمودة التى لم يفسدها تصنع .

وفى ليلة ألحت على فيها ذكريات هذا الصديق ، رأيته فى منامى مقصوص الريش متهدل الجناحين ، فوقع فى روعى أنه لا يزال حيا يرزق . وأننى سوف ألقاه فطامن ذلك من نفسى، ودعوت الله أن يحقق هذا الأمل .

وفى يوم مشرق باسم طيب الأنفاس نازعتنى نفسى الميل إلى الإلمام بحديقة أصيب فيها حظا من الهدوء والإجمام ، وما كدت أدخل إليها حتى رأيت فى طرف منها طائرا سقيما قد ألصق أحد جانبيه بالنبات النضير كأنما يبترد به من هول

مايلاقى من وعك الحمى ، وقد بسط جناحيه حوله تبرما بهما وضعفا عن حملهما ، وحوله عدد غير قليل من الطير قد ألف بينه الحزن على ذلك الطائر المريض الوقور المهيب . فراعنى هذا المنظر الغريب الذى يمثل أورع آيات الوفاء عند الطير . فرغبت أن أجلس حيث انتهيت لأرى عن كثب ما أنا معجب به . وما كدت أهدأ فى مجلسى حتى رأيت الطائر المريض يسلك طريقه إلى فى تثاقل وإعياء ، فلما قرب منى وكاد يلمس بالراح شمت منه مخايل صديقى العصفور وقلت عسى أن يكونه ، وهممت أن أبدأه بالتحية ولكنى تماسكت ورضت نفسى على الصبر والثبات — وماهى إلا لمحة كخطفة البرق حتى اهتز فبدا فى صورة إنسان نحيل قد أضرّ به الهزال ، وإذا هو كما قدرت صديقى العصفور ، فحيا وسلم وتجلت سمات وجهه واضحة ، فأسرعت إليه وعانقته طويلا وبكيت وبكى حتى عجب الحاضرون لشأننا ، وكان أطول منى بكاء وأرق شعورا وأصدق وفاء وهذا قدر مابين الطير والإنسان . وجلسنا فى صمت وخمود حركة ذاهلين من هول الموقف . حتى استعاد صاحبى بعض قواه . فخضنا فى وصف الفرقة وماأعقبت من آلام واتَّـعَـدْنا أن نلتقى فى هذا المكان بعد إبلاله مما هو فيه . والتقينا فى موعدنا فألفيته على خير ما أرجو له من صحة ونشاط فبدأنا الحوار :—

العصفور :— علمت أقوال بعض المجددين المتطرفين فى الشعر المرسل وما ينعون على الشعر المقفى من عيوب . فهل عندك من هذا الموضوع بقية لأحد منهم فيها جديد ؟

أنا — قد عرض لهذا البحث أحد المجددين فى كثير من الحكمة والاتزان ولعل هذا الرأى الذى سأعرضه عليك أعدل الآراء إلى اليوم قال :—

« لاجدال فى أن الموسيقا من أعظم محاسن الشعر واعتقادى الشخصى

أنها من ضرورات الشعر . وموسيقا الشعر العربى تكون فى : —

١ — الوزن .

٢ — القافية .

٣ — التصريع والترصيع (وهو الإسجاع) وما إلى ذلك من الصناعة اللفظية .

٤ — انسجام مخارج الألفاظ والحروف التى ينتخبها الشاعر .

٥ — أوجه أخرى لاأعرفها .

والذى يعنيناهنا القافية ، فالتزام قافية واحدة له ميزتان : الأولى الموسيقا. والثانية إظهار المقدرة الصناعية . وإهمال القافية له ميزتان: حرية التعبير عموما أو على الأقل فى بعض مجالات القول . وثانيا السمو بالشعر عن صناعة لفظية فانية قريبة الغور . أو على الأقل تخفيف العبء عن غير المتضلعين من اللغة تضلعا لايستلزمه النظم فى أى لغة أخرى . فأما موسيقا القافية فتكون فى الإيقاع أى أنها تشبه القرع الرتيب بعد فترات متساوية : فقراءة البيت هى النقرة . والطرب من الإيقاع مشاهد عند الفطريين كدقات طبول الزنج فى مراقصهم وعند الحيوان . ومنشأ هذا الطرب أنه يسبب نوعا من الاستهواء أو التخدير العصبى تنغمر فيه النفس وتصبح غير واعية وعيا تاما ما أكسبتها إياه المدنية أى أنها تتراجع كثيرا أو قليلا إلى أصلها وهو نفس الإنسان الفطرى الذى كان يعيش فى الغاب » .

ثم يعود فيقول « وتمتاز القافية أيضا بإظهار المقدرة الصناعية ولا أعنى بهذه المقدرة التمكن من معرفة الكلمات التى تصلح لقافية بعينها لأن هذا درجة دانية فى استيعاب اللغة وإن كان فيها عنت على الكثيرين ، ولكنى أعنى اقتدار الشاعر على ذكر مايغمره من المعنى بالضبط مع التزام القافية . وهذا الاقتدار ليس عظيم الحظ فى الفن ، ولكنى لاأرى بأسا فى اعتباره عملا فنيا

منزلته منزلة الزخارف التكميلية أو الكمالية فى التماثيل، أومنزلة الإتقان الشديد لأصغر تفاصيل الرسم، وقد امتازت بهذا الإتقان الصور الكلاسيكية، وكما يحدث للشعر يحدث للرسم فإن المدرسة الحديثة فى الرسم ترمى أيضا إلى التخلص من القيود كما فى الرسوم التكعيبية والرسوم التى لا يهتم فيها الفنان بإجادة التفاصيل البعيدة عن مغزى الصورة ومنطوقها .

والآن فماذا يريد أصحاب الشعر المرسل ؟ يريدون حذف القافية للتخلص من القيود أو للتخفيف عن أنفسهم .

والرأى عندى أنه لا بأس من حذف القافية إذا كان الشاعر من المقدرة بحيث يعيضنا عن النغم المفقود بموسيقا فى أثناء البيت بله موسيقا الوزن . ويكون الحذف لسبب فنى أى فى مجالات من القول بعينها ؛ لأن مما لا ريب فيه أن فى القافية تقييدا للشاعر — لا ينكره إلا غير خبير — فى بعض الشعر القصصى أو الشعر الشديد العمق الذى إذا التزمت فيه القافية خرج شديد الغموض وفيه كثير من اللبس الذى لا يمكن مجانبته وبه نفقد كثيرا من دقة المعنى » .

ثم يقول « وأخيرا هل تألف الآذان الشرقية الشعر المرسل بعد تقديم عشرين أو ثلاثين ديوانا منه ؟ إن هذه الألفة تستلزم أولا تغيير طبيعة اللغة العربية فى أساليبها وامتلائها بالاستعارات وهذا عمل شاق ولكنه جائز الوقوع وثانيا تغيير طبيعة النفس الشرقية لأنها ألفت الاستنامة إلى النغم المستطيل الرتيب ، ولأنها فى قرارتها تؤثر القصيد المجاد نغما على المجاد معنى أو تؤثر الموسيقا على التفكير والتأمل » ومن هذا يظهر لصديق العصفور تقدير الكاتب الأديب للشعرين وحيرته بينهما ، فهو لا يقول بإلغاء الشعر القديم دفعة ، ولا بالأخذ بالشعر المرسل دفعة وإنما يجيزه فى أحوال خاصة من القول كالشعر القصصى أو الشديد العمق ليتسع المجال أمام الشاعر ، وقد جعل لكل من من القديم والمرسل مزاياه .

العصفور : لازلت ياصديقي أرى فى هذه الدعوى غلواً لامبرر له . وإذا كانت روح العصر قد عدلت بالناس فى فن الرسم عن الزخرف والأمور الكمالية ، فليس من الحكمة أن يقاس الشعر على الرسم ليعدل عن زخرفه ، فلكل مزاياه . والشاعر القديم فى العربية لايصعب عليه أداء الأمانة للشعر القديم ورفع مكانته والانتفاع به فى كل مايريدمن دواعى العصر مع الاحتفاظ بزخرفه . والشعر عندى هبة نادرة قليلةالذيوع ، وحياته الحافلة بالقوة والخصب فى هذه الندرة . وليس من الرأى الموفق تيسير سبيله برفع قيوده وزخارفه حتى يصبح وردا مباحا لكل قدم عاجز ، ومتفيهق سخيف ، ودعى ضعيف . ألا ترى أنه مع الاحتفاظ بقيوده الثقيلة وزخرفه الكثير ، لاتزال تتهافت عليه فئات من أشباه الشعراء والمفتونين الذى ملئوا أطباق الأرض صياحا أشبه بنقيق الضفادع ، وخرجوا إليها بهراء من القول كعبث الأطفال ونفثات الممرورين ، فأصبحنا فى فوضى أدبية آذت الأذواق وأفسدت الألسنة ، وبتنا فى ليل داج من الخلط الأدبى فى الموضوعات والمعانى التى يزعم هؤلاء أنهم يحاكون فيها الأدب العربى فأخفقوا كل الإخفاق ، وباءوا بالإساءة إلى لغتهم أفبعد هذا يريدون التخفيف من قيود الشعر بإطلاق قافيته ليزيدوا فى عدد الأدعياء الثقلاء . إنا لنريد أن تزداد قيوده ويحاط بما يدفع عنه أمثال هؤلاء ليحيا فذاً له قيمته وطلاوته .

أنا : لقد قلت حقا وكشفت عن حقيقة واقعة فى أدبنا الحديث من كثرة المنتسبين إليه والمدعين له . وإذا كان المجددون يرون أن الكتابة قد نهضت وتحررت من كثير من قيودها الزخرفية فالشعر لايقاس عليها لأنها أداة المجتمع ولسانه الناطق ، ولهذا تأثرت بما يدعو إليه الاقتصاد فى الزمن وسرعة المبادلة فى الرأى لتيسير الأعمال وقضاء المطالب المشتبكة المتفرعة ، فهذبها الذوق الحديث الداعى إلى السذاجة فى مطالب الحياة وزخارفها والأخذ بما

تيسر ولطف ، فانطلقت من عقال السجع والخيال الحافل ، والتأنق فى اللفظ وجرت فى سبيل الوضوح والمعنى الصحيح السامى ، وفوق هذا هى عامة وهو خاص ، وهى حاجة وهو ترف ، وليس يطلب من كل مثقف أن يكون شاعرا على حين يحسن أن يكون كاتبا ، لأن الكتابة جمال له فى صنعته وليس الشعر مثلها ، والفنون عادة لا يفرض على المجموع الإلمام بها لأنها حظ الموهوبين . وما يرفع قدرها إلا هذا الخصوص الذى جملها وقصرها على أهلها ونفى عنها كل ضعيف محروم .

عبد اللطيف المغربى

نهج القرآن

للأستاذ محمد خلف الله أحمد

المدرس بكليـــة الآداب

قبل أن أحدثك عن نهج القرآن ، أحب أن أسلك معك المسلك التجريبي فى البحث ، فأقرأ وإياك سورة من سور الكتاب ، ولتكن سورة الرعد ، فإن لها نهجاً خاصاً فى التدليل على شرف القرآن ، ودحض عناد المشركين ، وبيان الفساد فى منطقهم وتفكيرهم ، وإن لها لطابعا بلاغياً جميلا من نوع ما انفرد به القرآن الكريم . وأنا الضمين لك – إذا قرأت معى السورة إلى آخرها – أن تتذوق ناحية من نواحى الحجاج المقنع المسكت ، والبيان الرائع الجليل .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « بسم الله الرحمن الرحيم . المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . . . . . قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

الآن وقد قرأت السورة كما يقرأ الأديب النص الأدبى ، فتناول قلما ، ودون على القرطاس صورة من سلسلة المعانى التى تركتها قراءة السورة فى ذهنك – وسترى مما كتبت أن هذه السورة تدخل بك على موضوعها مباشرة معلنة أن تلك الآيات آيات الكتاب ، وأن الذى أنزل إلى محمد من ربه الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون – وقد قامت من حولهم الدلائل الملموسة

الظاهرة التى من شأنها أن تدعو الناس إلى الإيمان بالله . فالله الذى رفع السموات بغير عمد ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، وهو الذى يدبر الأمر يفصل الآيات ، وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ونوع فيها من ضروب الثمرات والجنات والأعناب والزرع والنخيل . أليس عجيبا أن يشك هؤلاء الناس فى إعادتهم خلقاً جديدا بعد أن كانوا ترابا ، وأن يستعجلوا العقوبة وقد خلت من قبلهم المثلات . لقد كانوا إذاً على علم بهذه المثلات التى قد خلت من قبلهم ، ولولا ذلك العلم ما استحقوا التوبيخ على عدم الاعتبار . وهم كانو على علم بما أنزل على بعض الرسل من قبل ، ولولا ذلك ما اقترحوا على محمد آية مثل آية موسى أو سليمان .

وهنا تعود السورة إلى تمجيد الله وعلمه بما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وتقديره كل شىء بمقدار ، وعلمه الغيب والشهادة والسر والجهر والخفاء والظهور ، وتخويفه الخلق . وإطاعهم بالبرق ، وإنشائه السحاب الثقال ، وإرساله الصواعق يصيب بها من يشاء . ثم تندد السورة بمن يدعو غير الله ، وتشبهه بباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وتحاج من يتخذون من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ، ولا يستطيعون أن يخلقوا كخلقه ، وتتبع هذا بتمثيل للقرآن — أو الحق — مشتقة عناصره مما حول هؤلاء الناس من بيئة طبيعية ، من السيل والأودية والزبد الرابى ، ومما يوقدون عليه فى النار من المعادن والفلزات ابتغاء حلية أو متاع . وتفرق السورة بين أصحاء البصيرة ومراضها : فتصف الأولين بأنهم أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . أما مراض البصيرة فهم

المتصفون بنقيض هذه الصفات ، وأولئك لهم اللعنةولهم سوءالدار .

وتعود السورةمرةأخرىإلى اقتراح هؤلاء الناس أن تنزل علىالرسول آية أخرى : فتندد بجهلهم حكمة الله فى اختيار القرآن معجزة لنبيه العربى ، وقد اختار لبعض سابقيه من الرسل آيات طبعية كفلق الحجر وتفجير الأرض عيونا وتسخير الرياح وإحياء الموتى ، وتقول فى الرد عليهم : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » تاركة للذوق العربى أن يقدر فى العبارة جوابها المحذوف .

ثم تستمرالصورة على هذا النحو ، وفىحدود المعانى التى ذكرناها ، مقررة موازنة مقرعة حتى تصل إلى خاتمتها « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

* * *

وإنما سألتك أن تكون العناية بتصوير المعنى أولى خطواتك فى تذوق هذا النص الكريم لأنى سمعت العارفين يقولون.إن فهم المعنى فهماً صحيحاً هو أول مرحلة ضرورية من مراحل النقد ، وقدأجرى أحد أساتذة الأدب الإنجليزى فى جامعة « كمبردج » تجربة من هذا النوع تبين له منها أن معظم الخطا فى النقد إنما يجىء من الخطأ فى حل المعنى .

وبعد فما الذى لاحظت على نظم هذه السورة وأسلوبها التعبيرى ؟ أتحب أن تدون ملاحظاتك على هذه الناحية أيضا ؟ إذا فافعل . إن لهذه السورة كما ترى نهجا فى نسجها متميزا : فهى تنتظم ثلاثا وأربعين آية ، ختام كل آية فيها كلمة ممدودة بالألف بعدها حرف (إلا ستا منها ممدودة بالواو) وثلث خواتيم هذهالسورة كما ترى على روىّ الباء (عقاب ـ الألباب ، الحساب. . . الخ) ، وأكثرمن نصف هذا العدد علىروىّ الراء (بمقدار ــ بالنهار ــ القهار الخ) ، ونصف العدد الأول علىروىّ اللام (المتعال ـ وال ـ الثقال ... الخ)

ثم عدد صغير على رويّ الدال (هاد — المهاد — الميعاد .. الخ) ، وعدد على روى القاف (الميثاق — واق . . .) وواحدة على روى العين (متاع) ومن الممدودات بالواو خمس على روى النون . تبتدىء بها السورة (يؤمنون - توقنون . . . الخ) ، وواحدة على روى الباء (القلوب) .

ولعلك لاحظت بجانب هذا شيئاً من التكرار المتتابع فى خواتيم بعض الآيات (لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وكذلك (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب . ألم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) .

لهذه السورة إذا وحدة ظاهرة فى موضوعها وهو إظهار شرف الكتاب المنزل ، وتسفيه آراء المعاندين فى طلبهم قرآنا غير هذا ، أو آية مادية مثل آيات بعض الرسل السابقين . وأول آية فيها تقرب أن تكون تقريرا للموضوع كله ، ثم تتوالى بعد ذلك الآيات مفصلة الموضوع من جميع نواحيه فى دلالة القرآن على قدرة الله وصدق الرسول ، وفى منزلته من الآيات السماوية الأخرى . وفيما كان من شأن المعاندين معه ، وفى بيان انتفاع الناس به أو عدم انتفاعهم .

ولهذه السورة أيضا طابع خاص فى خواتيم آياتها ، حصرنا حروفه الختامية فى خمسة أو ستة متقاربة المخارج (ب . ر . ل . ن .) ، وبعض هذه الخواتيم مكرر تكراراً رقيقا لا يكاد يشعر به القارىء إلا إذا نبه إليه . وقد تشتمل الآية على لفظة مكررة أربع أو خمس مرات دون أن يشعر القارىء بأثر ممل لهذا التكرار (قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار) .

وشيئا آخر تلاحظه فى كثير من آيات هذه السورة ، ذلك أن القصص يبدأ فيها بصورة الفعل الماضى ويستمر شيئا حتى إذا قاربنا آخر الآية وجدنا جملة اسمية أو مضارعية ينتهى عندها الكلام ويحسن السكوت والاستقرار (الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش . يدبر الأمر يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى . . . يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

* * *

أما ناحية الجمال الفنى فى السورة فإنك تلمسها فى كل آية من آياتها ، وأظهر ماتظهر فى مناسبة الألفاظ لموضوعاتها : فإذا كان المقام مقام تدليل على قدرة الله جاءت العبارة كلها حافلة بهذا المعنى من رفع السموات بغير عمد والاستواء على العرش وتسخير الشمس والقمر . ومد الأرض وإغشاء الليل النهار . وإذا كان المقام مقام تخويف سمعت الآية تعج بما فيها من رعد وبرق وصواعق . وفى مقام الكلام عن المخالفين تسمع نقض العهد وقطع ما حقه أن يوصل ، والإفساد فى الأرض واللعنة وسوء الدار .

وثم ناحية أخرى هى تناسب الألفاظ والأصوات وجريانهامعا فى عذوبة وسهولة حتى إنك لتلمس لكل آية طابعا خاصا فى أصواتها (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات) (إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذى آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) .

ولعلك لاحظت أن قاموس السورة مشتق أغلبه من البيئة العربية الطبعية فهناك السماء والشمس والقمر والأرض والرواسى والأنهار والثمرات والجنات

والأعناب والزرع والنخيل والبرق والسحاب الثقال والرعد والصواعق والأودية والسيل والزبد والنار والحلية والمتاع والرزق .

وفيها من المتقابلات أزواج : الليل والنهار ، والسيئة والحسنة ، المغفرة والعقاب ، والغيض والازدياد ، والغيب والشهادة ، والسر والجهر ، والمستخفى والسارب ، والخوف والطمع ، والطوع والكره ، والغدو والآصال ، والنفع والضر ، والأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والحق والباطل ، والجفاء والنافع ، والوفاء والنقض ، والضلال والهدى ، والمحو والإثبات ، والدنيا والآخرة .

* * *

لعلك ترى معى أن الحكم على نهج القرآن يتطلب قراءات كثيرة من هذا النوع ، ويتطلب معرفة تامة بخصائص الأساليب ومميزاتها . وبعد فمن أى فنون الأدب نعد القرآن ؟ كان من بعض مارمى الكفار به صاحب الدعوه أن الذى أتاهم به هو من قبيل الشعر .

وقد أنكر القرآن عليهم ذلك فقال « وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » ، وقال « وماهو بقول شاعر » . فأما أن القرآن مغاير لما تواضع العرب على تسميته شعرا فذلك مالاشك فيه . ولكن من المحتمل أنهم رأوا لهذا القرآن تأثيرا سحريا من نوع ماكان يبعثه فيهم سماع أشعارهم ، وأنهم رأوا له جرسا موسيقيا هو فى الذوق من خصائص الشعر . ومن المحتمل أنهم رموه بكونه من قبيل الشعر ليقللوا من شأنه وليقولوا إنه من مقدور البشر . ولو أنهم اعتقدوه حقيقة شعرا ، ولم يروه خارجا عن أساليبهم فى الشعر لبادروا إلى معارضته لأن الشعر ـ كما يقول الباقلانى فى إعجاز القرآن ــ مسخرلهم ، مسهل عليهم ، لهم فيه تصرف عجيب ، واقتدار لطيف.

ولعل قائلا يقول : إذا كنا قد نفينا عن القرآن خصائص الشعر عند العرب

فهل تنطبق عليه بعض خصائص الشعر عند الفرنجة ؟ إن فى القرآن شيئا كثيرا مما يمكن أن يسمى فى اصطلاح النقاد أدبا قصصيا ، وشيئا مما يمكن أن يسمى أدبا تهذيبيا ، وأدبا نقديا ، وبعض آياته التى تشتمل على تمجيد الله وتقديس صفاته والتى تخاطب العاطفة والوجدان أكثر مما تخاطب الذهن والفهم ، تكاد تشبه فى موضوعها مايسميه الأوربيون الشعر الغنائى الذى كان الأصل فيه عند اليونان أن ينظم لتمجيد الآلهة وتكريم الأبطال .

كل هذا حسن ، ولكن الشعر الإفرنجى أيضا له ضوابطه وموازينه وألحانه وليس شىء من هذا بمنطبق على القرآن .

إن الأدب ينقسم عادة إلى فنى الشعر والنثر . وإذا أردنا أن نعرف نوع فن القرآن بالنسبة لهما فلنقف عندهما وقفة قصيرة ولنحاول التفرقة بينهما من حيث كونهما نظامين متميزين من أنظمة التعبير .

إن الشعر يختلف عن النثر لافى مادته فحسب ، ولا فى طريقته فحسب ، ولكن فى الاثنتين معا . فالشعر وليد الحياة الوجدانية وترجمانها ، وإذا خاطب فإنما يخاطب الانفعال والعاطفة والذوق والإحساس . وهو من حيث طريقته يهب الشطر الكبير من عنايته للألفاظ وجرسها وموسيقاها وتناسبها وصورها الفنية .

فهو ـ كما عرفه أحد الشعراء الأجانب ـ أحسن الكلمات فى أحسن نظام . وأنت فى قراءتك الشعر الجيد لاتستطيع أن تتجاهل جاذبية الألفاظ فإنهن يفرضن أنفسهن عليك فرضا .

أما النثر فهو ترجمان الحياة الفكرية المعقدة ، وهو أداة التعبير إذا تشعبت الحياة وتنوعت مطالب الفكر ، وأصبح للشعب فلسفة ونقد وسياسة واجتماع راق . وعناصر النثر الأفكار لاالكلمات ، فما الكلمات فيه إلا رموز عن المعانى ومطايا لها . فإذا جذبت الكلمات الانتباه إلى أنفسهن وحلن بين القارىء أو

السامع وبين تمام الانصراف إلى المعنى كان ذلك إلى الشعر أقرب . ولهذا السبب كانت ترجمة النثر إلى لغة أخرى أيسر من ترجمة الشعر ، فالفكرة ـ لكونها مستقلة عن الألفاظ التي تعبر عنها ـ يمكن أن تنقل دون كبير مشقة . ولكن للعبارات الشعرية يتعذر نقلها فهي مجموعة كلمات ، وجودتها إنما هي في نسج كلماتها ، وفي الأصوات والروابط التي تكون لهذه الكلمات ، وقد لاتكون لمقابلاتها في اللغات الأخرى .

فأين منزلة القرآن إذا بالنسبة لهذين الفنين ؟

إن في القرآن لسحرا يصل بينه وبين الشعر ، وفي ألفاظه رونق تتطلع اليه أعناق الأساليب الشعرية ، وإنك لو أخذت لفظة من ألفاظ القرآن فوضعتها في مكان مناسب من كتابتك أو خطابتك ، كسب أسلوبك منها حلية وجمالا يحس بها كل ذي ذوق في الأدب ، وهناك صلة وشبه بين بعض موضوعات القرآن وموضوعات الشعر كما أسلفنا . وبعض السور المكية التي نزلت في مهد الإسلام ترى لها فواصل قصارا ، والتزاما أحيانا لحرف واحد في أغلب السورة يقرب من التزام الروى في القصيدة ، وتسمع لهذه السور عند قراءتها رنينا ونغما يحلو تجويده والترنم به .

والقرآن مع ذلك ليس ببعيد من النثر ، ولم يعن أن ينفي عن نفسه صفة النثرية كما عنى في أكثر من موطن بنفي صفة الشعرية . ومثانيه منها الطويل ومنها القصير ، ومنها مايقرب أن يكون مسجوعا ، وما يصح أن يسمى مرسلا وفي بعض أساليبه شبه بأسلوب الخطابة . وموضوعاته التي يعالجها من حجاج وخصام ، وإجمال وتفريع ، وتذكير وتقريع ، وتدليل وتشريع ؛ كل أولئك موضوعات تقتضي طبيعتها أن تعالج في أساليب نثرية .

ورغم كل هذا وذاك فالقرآن ليس بالشعر ولا هو بالنثر ، ولا يمكن أن

تنطبق عليه خواص أحد الفنين كاملة ، وبينه وبين ماصحت نسبته إلى الرسول من أحاديث ورسائل وخطب بون كبير ، وانما هو إذا بيان عربي فريد ، له طابعه البلاغي الخاص ، وله طريقته البلاغية الخاصة ، ولم نجد شيئا من مأثور الأدب الجاهلي يشابهه أو يدانيه ، ولم يجيء بعده في الأدب الإسلامي كتاب أفلح في أن ينحو نحوه ، أو يقلد فنه ، أو يتحدى إعجازه ؟

محمد خلف الله

وطنيـــة المتنبي

للأستاذ على النجدى ناصف

مفتش المعارف بالاسكندرية

كان مولد المتنبى بالكوفة ، فى حى من أحيائها يسمى كندة . وقد نسبه الناس إلى المدينة والحى معا ، فقالوا : المتنبي الكوفى الكندى . وبقى المتنبى بالكوفة حتى نما واشتد ، ثم دعته دواعى العيش إلى الضرب فى الأرض فرحل عنها ، يطوف فى الآفاق ، ويتنقل من بلد إلى بلد ، يعرض شعره على السراة وأصحاب الجاه والسلطان ، طلبا للرزق ، أو مصانعة فى سبيل الأبهة والملك . أما أهله فقد بقوا بالكوفة ، لم يتبعه منهم سوى ابنه محسد ، رحل معه إلى فارس وقتلا معا فى العودة منها .

فالمتنبى كان موصول السبب بالكوفة على الرغم من هجرته منها : كانت لأهله مستقرا ومقاما كما كانت له منشأ ومربى . فهل تراه وعلاقته بها على ما رأيت . قد أدى حقها عليه ، برا بها ووفاء لها ؟ هل تراه أشاد بمزاياها ، أو فتن بجمالها ، أو حن إلى عهده فيها ؟ أم هل تراه حملنا على الاهتمام بها والتفكير فيها ، والعطف عليها ، كما فعل بشعب بوان(١) ودشت الأرزن(٢) ؟

إننا إذا رجعنا إلى الديوان ، نتقصى قوله فى الكوفة ، وتتنور عاطفة

---

(١) موضع بفارس ، كثير الأشجار والمياه . وكان يعد من جنان الدنيا الأربع ، وصفه المتنبى فى فى القصيدة التى مطلعها : مغانى الشعب طيبا فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان

(٢) موضع حسن على نحو ٣٠ ميلا من شيراز ، تحف به الجبال ، وفيه غابات ومياه ومروج وصفه المتنبى فى الأرجوزة التى مطلعها : ما أجدر الأيام والليالى بأن تقول ماله ومالى

الوطنية عنده ، ونسبر غورها من نفسه . تخلص لنا ظاهرتان : —

الأولى : أنه لم يتحدث عن وطنه إلا عرضا ، وأنه إذ يفعل كان يقتضب الحديث اقتضابا فيقصره على القدر الذى يقتضيه المقام ولا زيادة . وهذه هى أقواله فى الوطنية :

قال من قصيدة نظمها فى صباه :

در در الصبا ، أأيام تجرير ذيولى بدار أثلة[1] ، عودى

وقال من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويذكر إيقاعه ببعض قبائل العرب .

تذكرت مابين العذيب وبارق[2] مجرعو الينا ، ومجرى السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلات ماقد كسروا فى المفارق
وليلا توسدنا الثوية[3] تحته كأن ثراها عنبر فى المرافق
بلاد إذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنه للمخانق
سقتنى بها القطر بلى مليحة على كاذب من وعدها ضوء صادق

وقال من قصيدة فى مدح على بن إبراهيم التنوخى:

أمنسى الكناس ، وحضرموتا ووالدتى ، وكندة والسبيعا[4]

والظاهرة الأخرى أنه يبدو بعض الأحيان فاتر الوطنية ، بل خامدها تراه لا يبقى عليها ، ولا يستمسك بفكرتها . ويتمثل ذلك إما فى الفخر بكثرة التنقل من بلد إلى بلد كقوله :

بأى بلاد لم أجر ذوائبى وأى مكان لم تطأه ركائبى

وإما فى إعلان الزهادة فى الوطن . والرغبة عن المقام فيه إذا جفاه صديق من أهله ، أو نبت رحابه به ، أولم يطب له القرار فيه كقوله :

---

(١) موضع بظاهر الكوفة (٢) موضعان بظاهر الكوفة (٣) الكناس وحضرموت محلتان بالكوفة وكندة محلة غربيها ، والسبيع سوق بها وعلة

إذا صديق نكرت جانبه لم تعيني فى فراقه الحيل
فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

وقوله :

وما بلد الإنسان غير الموافق ولا أهله الأدنون غير الأصادق

وقوله :

وكل امرىء يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وإما فى الجهر بالاستغناء عن الوطن ، وعدم التعلق به ، أو التفكير فى العودة إليه ، كقوله :

وإنى لنجم تهتدى بى صحبتى إذا حال من دون النجوم سحاب
غنى عن الأوطان لا يستفزنى إلى بلد سافرت عنه إياب
وعن ذملان العيش إن سامحت به وإلا ففى أكوارهن عقاب

لهذا وذاك اتهم المتنبى بعقوق الوطن ، واضطراب فكرة الوطنية (١) وهو فى رأيى برىء ، من التهمتين جميعا ، فلم يكن فيما رويت من شعره فى بعض أحياء الكوفة والمواضع القريبة منها — وطنيا يصدر عن عاطفة واجدة، وإحساس متأثر . ولم يكن فيما رويت من شعره فى التحلل من فكرة الوطنية وعدم التقيد بدواعيها — أفاقا يصدر عن عقيدة راسخة وإيمان بما يقول . ولكنه كان فى هذه وتلك وفى مواقف أخرى كثيرة — صاحب فن ليس غير ، يخلص لفنه الإخلاص كله ، ويبذل قصاراه لمرضاته والوفاء له ، ثم لا يعنيه بعد ذلك أين يقع قوله من الوطنية ، ولا كيف يكون من آرائه ونظرياته فيها

لقد كان المتنبي مشغول البال ، جم المتاعب ، كثير الهموم . كان صاحب مطامع جليلة ، هام بها ، ووهب جميع مواهبه لها ، ولم يأل جهدا فى إدراكها، حتى ما كان يعمل إلا لها ، ولا يتحدث إلا متأثراً بها من قريب أو من بعيد

(١) المتنبي للأستاذ شفيق جبرى ص : ٦٧ ، ٩٠

لقد سعى إلى الملك أهون مايكون شأناوأضعف مايكون ناصراً ، وأقل ما يكون عدداً ، فأخفق فى مسعاه إخفاقاسريعاً ذريعاً ،وألقى فى غيابة السجن، فلبث فيه حتى كاد يتلف ثم خرج منه عائلا مجهوداً وخاملا مغموراً: لا يحسه أحد، ولا يباليه أحد، فما زال يدأب ويلح فى الدأب حتى نفقت بضاعته ، وطار صيته ، وقدره الناس حق قدره ، فعاودته فكرة الملك رويداً ، وبلغت غايتها، من القوة والوضوح فى أثناء مقامه فى مصر، فحاول ماوسعته الحيلة ، وصانع ما أمكنته المصانعة، لعله يقضى منها وطراً ، فأخفق كذلك ، وأصبح امرأ محذوراً : لا يؤمن جانبه ولا يصح إغفال أمره والسكوت عنه ، فضربت عليه الرقابة والتجسس ، وحدت حريته، وهدد فى أمنه وعافيته ، فلم يجد ملتحداً يعوذ به إلا الفرار ، فركبه على خطر ومغامرة ، ولم يبلغ طيتـه إلا بشق الأنفس . ثم إنه كان رجلا محسوداً ، طالما دبرت له المـكايد ، ونصبت الشراك ، ودست الدسائس ، لم يسلم منها أينما توجه، وحيثما أقام وكان مغرما بالمال يحبه حباً جماً ، ولا يألوه كدحاً وطلبا ، كأنما أراد أن يقيم به دولة من الأبهة والجاه ، بعد أن أعيته دولة الصولة والسلطان. وهيهات ثم هيهات مع هذه المشاغل الثقال أن يفيق الإنسان لوطنه ، يحن إليه ويتغنى بمحاسنه كما يتغنى الخلى الفارغ الفؤاد .

هو إذاً صاحب فن كما أسلفنا ، ينظر إلى القصيدة نظره إلى الموضوع المستقل أو الوحدة الفنية ، لا صلة لها بغيرها ، ولا تشابه بين أصولها وأصول غيرها إلا بمقدار ما يكون بين موضوعيهما من أسباب الاتصال والمشابهة . فمن حق القصيدة عليه أن تستوفى نصيبها من أسباب القوة والتأثير ، وإن أصيب هو فى هذه السبيل بتخالف الآراء ، والاضـطراب بين المـذاهب والنظريات ، صنيع الممثل اللبق ، يولع بفنه ، ويبذل له كل مايقتضيه من أسباب الإحسان فهو لذلك يأخذ نفسه فى جد وصرامة بالاندماج فى مواقفـه ، ويلبس لـكل موقف لبوسـه الذى يلائمه ، ويوارى من شخصيته ووجداناته كل مايجافيه

أو يشذ عنه، فبينا تراه فى موقفه طاغية متجبراً، يدعو إلى الخسف ويمكن للاستبداد، تراه فى آخر عدلا متواضعاً، يدعو إلى السلم، وينادى بالمساواة والشورى، ولقد تراه يضحك ويعربد وإن يكاد قلبه لينفطرهما وكمداً، أو تراه يبكى ويتوجع وإن يكاد قلبه ليطير بهجة وسروراً.

والآن لعلك تريد مثلا من التناقض الذى ساقه الفن إليه، وأوقعه فيه، فلم ينكره، ولم يحاول التخلص منه. دونك إذا موقفه من العرب مثلا أول. فالمتنبى كما لايخفى. عربى صميم، أبوه من جعفى بن سعد العشيرة، وجدته من همدان. وهو إذ يتجرد من تمثيله الشعرى، ويخلو إلى نفسه يتحدث إليها وتتحدث إليه. يقف من العرب الموقف الطبيعى، فينتسب إليها، ويفخر بها. قال:

لى منصب العرب البيض المصاليت ومنطق صيغ من در وياقوت
وهمة صار دون العرش أسفلها وصار ماتحته فى لجة الحوت (١)

أما حين يمدح بشعره، ويزجيه للتجارة والكسب، فلا يعنيه أن يكون رأيه فى العرب مايكون، إنما يدع ذلك لمطالب الموقف، ودواعى الفن كما يراه صاحب الفن المحترف، فهو دائما من ورائها، يذهب مذاهبها وينزل على أحكامها فى غير تحرج ولا مبالاة.

استمع له يرثى للعرب، ويتوجع لشقوتها، أن ذهب عزها ودال سلطانها واستبدت بها الأعاجم، يسومونها الخسف والمهانة، على جفوتهم، وسوء منبتهم، وأنهم لا أدب عندهم، ولا أحساب لهم ولا عهود:

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيئاً عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك، وما يفلح عرب ملوكها عجم
لاأدب عندهم ولا حسب ولاعهود لهم ولا ذمم

---

(١) زيادات ديوان المتنبى، ص ١٤.

في كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنهم غنم
يستخشن الخز حين يلبسه وكان يبرى بظفره القلم

إنه هنا كما سمعت . شاعر العرب ، يحس إحساسها ، ويترجم عن آلامها ، ويثير فيها الحمية والنخوة ، لا يخاف بخسا ، ولا يتوجس حرمانا ، فطبيعة الموقف تقتضى ذلك وتدفع إليه ، لأن الممدوح فى القصيدة عربى ، فلا عليه أن يكون هو أيضاً عربياً وإن لم يكنه .

ثم استمع إليه يلمز العرب ، ويزرى بعيشة البداوة ، ويؤثر العجم على العرب ، ويمتدح عيشة الحضر :

أرأيت همة ناقتى فى ناقة نقلت يدا سرحا وخفا مجمراً
تركت دخان الرمث فى أوطانها طلبا لقوم يوقدون العنبرا
وتكرمت ركباتها عن مبرك تقعان فيه وليس مسكا أزفرا

إلى أن قال :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والإسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافنى من ينحر البدر النضار لمن قرى

أتدرى سر هذا التحول من النقيض إلى نقيضه ؟ إنه الممدوح فهو هنا ابن العميد ، وهو من سلالة الأعاجم ، فهل عليه أن يكون هو كذلك أعجميا وإن لم يكنه ؟

ثم دونك مثلا آخر من مناقضاته الفنية ، إذا صح هذا التعبير. قال يتحدث عن بنى كليب ، وقد أوقع بهم سيف الدولة :

ولو غير الأمير غزا كلابا ثناه عن شموسهم ضباب
ولاقى دون ثأيهم طعانا يلاقى عنده الذئب الغراب
وخيلا تغتذى ريح الموامى ويكفيها من الماء السراب

فهو كما ترى — يذكرهم بالخير ، ويصفهم بالشجاعة والمنعة ووفرة العناد .

أتدرى لماذا ؟ لأن الممدوح عربى ، وبينه وبين بنى كلاب صلة من نسب ، فمدحهم بما مدحهم به — يعد كذلك مدحا له .

واسمع ما يقول عن بنى كلاب أنفسهم فى مقام غير المقام :

أرادت كلاب أن تقوم بدولة لمن تركت رعى الشويهات والإبل
أبى ربها أن يترك الوحش وحدها وأن يؤمن الضب الخبيث من الأكل
وقاد لها دلير كل طمرة تنيف بخديها سحوق من النخل
وكل جواد تلطم الأرض كفه بأغنى عن النعل الحديد من النعل
فولت تريغ الغيث والغيث خلفت وتطلب ما قد كان فى اليد بالرجل
تحاذر هزل المال وهى ذليلة وأشهد أن الذل شر من الهزل

أتدرى لم هذا التحول أيضا ؟ لأن الممدوح هنا دلير بن لشكروز ، وهو ديلمى لاعربى ، خرج لقتال الخارجى الذى نجم بالكوفة من بنى كلاب . فالداعية الفنية فى مدح موقف هذا الديلمى من بنى كلاب غير الداعية الفنية فى مدح موقف سيف الدولة منهم ، وبين الموقفين من الاختلاف قدرمابين الرجلين من الاختلاف كذلك .

والآن ، هلم إلى الديوان فى ضوء الحقائق التى أسلفنا ، نرجع البصر فى أبياته الوطنية ، ونتعرف الظروف التى تكنفتها ، والدواعى التى دعت إليها . قال :

در در الصبا أأيام تجري ر ذيولى بدار أثلة عودى

وهذا البيت من مقطعة فى الغزل ، اختار الشاعر موضوعا لها حكاية العاشق الأشيب ، يتشوق ماضيه ويحن اليه ، ويتوجع من حاضره ويضيق به . وأبو الطيب كما لا يخفى . لم يكن شاعرا غزلا ، ولكن متغزلا مقلدا . ولعله فى غزله هنا أبين ما يكون صنعة وتكلفا ، فالقصيدة فيما يقول العكبرى ، وفيما يبدو عليها من شعره فى عهد الصبا . وها هو ذا رغم حداثته يلبس لبوس الشيخوخة المتهدمة ، ويتكلف عواطف الشيخ العاشق ووجداناته . ألا تراه كيف يدعى

أن قد أصبح مقسم النفس بين السخط والرضا ، والنفور والحنين : يسخط على حاضره العابس المتجهم وينفر منه بما فيه من ضعف الشيخوخة وإعراض الغوانى ، ويرضى عن ماضيه المشرق البسام ويحن اليه بما كان فيه من لهو ومتاع. ولكن كيف يستقيم له التمثيل ، وتتساوق معه مشاهد الموقف فى حبكة واتساق إذا هو لم يعين موضع لهوه ومرحه ؟ إذا لابد من موضع يذكره . وما يمنع أن يكون ذلك الموضع هو دار أثلة ؟ أليست مكانا بظاهر الكوفة ، مسقط رأسه ومرتع صباه ؟ ليكن ذلك .وقال :

أمنسى الكناس ، وحضرموتا ووالدتى ، وكندة ، والسبيعا

والمقام فى هذه القصيدة مقام مدح واستمناح ، فالمعول فيه على التوريط وشدة التأثير ، لعل الممدوح يثيبه بجائزة سنية ؛ إذ كان الشاعر يومئذ مايزال عائلا مجهودا . وليس أحق بمحبة الإنسان فيما يعرف الناس من وطنه بين البلاد ، ومن أمه بين الأهل والأقارب . إذا ، فمن الخير له ، ومن أسباب التأثير فى ممدوحه أن يزعم له أن قد أنساه أمه ووطنه ، بحسن ملاطفته ،وجميل إيناسه ووفرة عطاياه.وقال :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ، ومجرى السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلات ما قد كسروا فى المفارق
وليلا توسدنا الثوية تحته كأن ثراها عنبر فى المرافق
بلاد إذا زار الحسان بغيرها ترى تربها ثقبنة للمخانق

والشأن فى هذه الأبيات للمفاخ [illegible] الدولة

[illegible]

ممدوحيه ، ويدعى مشاركتهم في بعض أحوالهم [١] ، وأن يعمل على أن يظل أثيرا عندهم ، ومقربا إليهم بالمخادعة والدهان ، وإعلان الانقطاع إليهم ، وبيع كل عزيز بهم [٢] فإذا كان سيف الدولة فى حربه مع قبائل العرب يستحق الحمد على بسالته ورباطة جأشه وشدة احتماله للمكاره — فماذا يمنع المتنبي أن يتطاول إلى مفاخرته ، وينسب إلى نفسه مثل الذى يصف من مناقبه ؟ أليس هو المتنبي الشاعر الطموح الذى يقول لكافور :

وفؤادى من الملوك ، وإن كا　　ن لسانى يرى من الشعراء

فليتقمص إذا شخصية البطل المظفر ، تشغله مفاخره الحاضرة عن مفاخره الماضية حتى يكاد لا يذكر منها شيئاً إلا فى المناسبات . وها هو ذا إيقاع سيف الدولة بقبائل العرب قد ذكره ، والشيء بالشيء يذكر — عهدا له بالعذيب وبارق ،

---

(١) قال يخاطب كافورا ، وقد بنى دارا ، ورغب إليه أن يذكرها فى شعره :

إنما التهنئات للأكفاء　　ولمن يدنى من البعداء

وأنا منك لا يهنىء عضو　　بالمسرات سائر الاعضاء

وقال يعزى سيف الدولة عن عبد له يسمى يماك :

لا يحزن الله الأمير فاننى　　لآخذ من حالاته بنصيب

وقال يعاتبه :

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة　　إن المعارف فى أهل النهى ذمم

وقال يتحدث عن أبى العشائر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللف　　ظ ، كلانا رب المعانى الدقاق

(٢) قال فى مدح كافور الاخشيدى :

أ [illegible] لقاهم　　وأين من المشتاق عنقاء مغرب

[illegible] أعذب

قضاه فى صحبة قوم أنجاد أولى حمية وبأس ، وأولى ذخيرة وعتاد ، غاراتهم متعاقبة ، ومطاردتهم الأعداء غير منقطعة ، يعملون السيوف فى رءوسهم بلا رفق ولا مرحمة ، فيتحطم منها مايتحطم ، ويبقى من أصولها ما يبقى ، فيتخذون من بقاياها مدى يذبحون بها القنائص والصيد . وربما افترشوا أرض الثوية إذا جن الليل : ينامون عليها هانئين ، طيبة نفوسهم ، قريرة أعينهم ، بما يفوح من شذا تربها العبق المعطار ، فإذا ماوصل أبو الطيب من هذه المفاخرة إلى الغاية التى أراد ، وأدخل فى نفسه الرضا من هذا الباب انقلب على عقبه كالعهد به خداعا مداهنا ، يريد أن يستأثر بسيف الدولة ويبلغ من نفسه غاية التأثير ، وأقبل يدعو إلى الهجرة من الوطن إذانبا ، وإلى مفارقة الأقارب إذا تغيروا وفسدت بينهم علائق الألفة والتناصر ليوهم سيف الدولة أنه أحب إليه من قومه ، وأن جواره أكرم عليه من وطنه ، مع مافيه من متعة وجمال ، ومايصله به من مفاخر وذكريات غوال ، قال :

ومابلد الإنسان غير الموافق ولاأهله الأدنون غير الأصادق

***

فلم تكن هناك إذا آراء فى الوطنية ارتآها الشاعر ، وعرضها فى شعره ، فإذا هى متضاربة ينقض بعضها بعضا ، وإنما كانت هناك موضوعات مختلفة ، اقتضى المقام فى كل منها ذكر الوطن بأسلوب خاص ، فلبى الشاعر داعى الفن ، غير متأثر إلا به ولا ناظر إلا إليه .

على أن المتنبى كان يدون سوانح أفكاره وخواطره العابرة ، كما تتمثل لوقتها فى ذهنه ووجدانه ، لا كما تشاكل آراءه ونظرياته السابقة ، مشاكلة النظير لنظيره ، أو الفرع لأصله ، فكان كالمرقب الذى يصور كل ما يمر به ، أو يتصدى له من أجرام السماء على الأوضاع التى يصادفها عليه حين التصوير ،

لا كما يتطلب التشابه بين أوضاعها السابقة واللاحقة وهذا يوافق طريقته فى صياغة الأساليب ، إذ كان فيما يقال [1] . يرسلها إرسالا على الصور التى تتهيأ له ؛ غير عابىء بما قد يصيبها من التعقيد أو ضعف التأليف .

على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالإسكندرية

(١) التبيان : ١ : ٣٣٧ ، والصبح المنبى ٠ ١ ٠ ١٨٤

العبـــــــاسى

للأستاذ محمد أحمد برانق
المدرس بالإبراهيمية

خف على قلب الرشيد ، فكان يتملح معه ويناديه ، ياعباسى ، وكان من حقه عند مايريد أن يتظرف له أن يناديه يا أبا العباس ؛ لأن له ابنا يسمى العباس ، ولكنه بالغ فى استملاحه فهو العباسى ، مقبلا ومدبرا ، وهو العباسى غائبا وحاضرا . أما اذا جد الجد ، فهو الفضل بن الربيع الذى ينحدر نسبه من أحد موالى عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والربيع أبوه ابن أمة علقها أبوه ، فأنتجته ، فاستعبد واشتراه زياد بن عبد الله الحارثى ، وقدمه هدية إلى خاله أبى العباس السفاح فخدمه ، وحظى عنده ، ثم خدم أبا جعفر المنصور من بعده فخص به ، وظل أثيرا عنده حتى قلده العرض عليه ، واستوزره وقلد الفضل ابنه الحجابة .

***

وكان الربيع يحاول أن يجعل لابنه منزلة عند الخليفة المنصور ، ويجعله خفيفا على قلبه ، حبيبا إلى نفسه ، قريبا فى مجلسه ، مستشارا فى أمور دولته ،ا ولعل ذلك كان أعظم مايتمناه ، إذ لاشىء عند الإنسان يعدل أن يرى ابنه قريبه من صاحب السلطان ، متمتعا بثقته ، آمرا بما يؤمر به ، ناهيا عما ينهى عنه يتصرف فى شئون دولة ، ويرعى عهد أمة ، وكل من حوله سميع مطيع؛ولذلك

تراه لما استوزره المنصور ترك أن يسأله حاجه تخفيفا ، وكان ذلك على غير عادة منه ، فقال له المنصور يوما : قد انقبضت عن مسألتى حوائجك حتى أوحشتنى ، فقال : ماتركت ذاك ، أنى وجدت لها موضعا غير أمير المؤمنين ولكنى ملت إلى التخفيف ، فأمره المنصور أن يعرض عليه مايحب من حوائجه قال الربيع : حاجتى يا أمير المؤمنين أن تحب الفضل ابنى . قال المنصور : ويحك ! إن المحبة لاتقع ابتداء ، وإنما تقع بأسباب ، فقال : قد أوجدك الله السبيل إليها . قال : وماذاك ؟ قال : تنعم عليه ، فإذا أنعمت عليه أحبك ، فإذا أحبك أحببته ، قال المنصور : — فقد والله حببته إلى قبل أن يقع من من هذا شىء . ولكن كيف اخترت له المحبة من بين سائر الأشياء ؟ فأجابه الربيع : لأنك إذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه ، وصغر عندك كبير إساءته وكانت حاجته عندك مقضية ، وذنوبه عندك مغفورة .

هذا هو الربيع يقرب ابنه من أمير المؤمنين ، ويلقى فى قلبه محبته ، ويطلب ذلك من الخليفة بعد أن أوحشه بالإعراض عن السؤال ، والانقباض عن مساءلته شيئا ، حتى يقع مايطلبه من نفس أمير المؤمنين فى المحل الذى يريده .

ويظهر أن الذين يتصلون بصاحب السلطان تحيط بهم أزهار وأشواك ، ويكثر حولهم الساعون بهم ؛ لأن المنافسة فى مثل هذه المواطن يغلب أن تكون السعاية وليدتها ، ولذلك لا يصلح كل إنسان لها ، وإنما يصلح لها كل جبار داهية ، عركته الأيام ، فإن شرب من حلوها كأسا تجرع من مرها كئوسا ، لايطغيه السلطان ولا تبطره النعمة ، ولاتمر أمامه الحوادث كما تمر أمام كل الناس . يجب أن تكون كل جوارحه عيونا ، وكل جوارحه آذانا ؛ يعرف معنى الهمسة واللفتة والغمزة ، ويقدر لكل ماحوله نتائج يبتغيها أو يتقيها ، ويكون أحذق من حوله ، غير جاهل فى صناعته ولامتهم فى دينه وليس ذا هوى فى رأيه ، حتى تكتب له السلامة .

وقد أرادالربيع أن ينشىء ابنه تنشئة سياسية تنفعه فى قصور الملوك ، فأراد أن يحفر بئرا لأبى عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار ، وزير المهدى ، فسعى عليه وحمل المهدى على مكارهه ، مع أنه كان مختصا به من أيام المنصور. وكان ابنه الفضل يصاحبه فى الزورة التى كانت سببا فى غضبه من أبى عبيدالله ولامه على أن مر به ، وطرق بابه قبل أن يطرق باب الخليفة فحجبه ثم أذن له ولم يقم إليه ، فأقبل الربيع على الفضل وقال له : أنت أحمق يابنى. قال : وماحمق ؟ قال : تقول لى ؛ كان ينبغى ألا تجىء ، وإذا جئت وحجبك ألا تقيم منتظرا ، ولما دخلت فلم يقم إليك ، أن ترجع فلا تكلمه ! ! لم يكن الصواب غير مافعلته كله ، ولكن والله الذى لا إله إلا هو لأخلقن جاهى ولأنفقن مالى ، حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله . ثم كان من الربيع ما بلغ به ما أراد مع أبى عبيد الله ، فأحفظ عليه المهدى حتى أقصاه عن وزارته ، وكل ذلك كان على مرأى ومسمع من الفضل الذى تعلم السياسية على أبيه وتخرج فيها على يديه

اتصل الفضل بن الربيع بالرشيد ، وكان صاحبه ، وكاتم سره ، وموضع ثقته ؛ يستشيره فيشير عليه بما يوافق هواه ، ويرضى عنه . ويأتمنه على مالم يأتمن عليه غيره ، ولقد كانت له يد فى نكبة البرامكة ؛ لأنه سعى عليهم عند الرشيد ، وحمله على مكارههم . كما سعى أبوه من قبل على أبى عبيد الله عند المهدى ، وحمله على مكارهه . ولقد قالوا : إذا أراد الله عز وجل هلاك قوم وزوال نعمتهم — جعل لذلك أسبابا . فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع .

☆☆☆

وسبب سعاية الفضل على البرامكة يذكره الجهشيارى فى كتابه « الوزراء والكتاب » . فى ص ٢٠٠ :

« ومما حكى من سبب سعى الفضل بن الربيع على البرامكة — ما حكاه محمد

ابن داود بن الجراح فى كتابه المسمى « كتاب الوزراء » عن محمد بن إبراهيم مولى خديجة بنت الرشيد عن أبيه ، وذكر أنه حضر ذلك . قال : نادم الفضل ابن الربيع الرشيد ، وخص به ، فقال لجعفر : قلد الفضل بريد ناحية يأخذ رزقها، ويستعين به على خدمتى ؛ فقال له جعفر بسلاسة خلقه : اختر . فقال: الموصل وديار ربيعة ؛ فأمر أن تكتب كتبه عليها ، وراح بها إلى أبيه ، فلما عرضها عليه ، وعرفه حال الفضل وخصوصيته — غضب يحيى وقال : هذه ناحية إلى أخيك ، وقد صرفناه عن أرمينية ، وتصرفه عن هذه ؟ وكان ولى خراج أرمينية وحربها ، وصرف عنها !! فقال : ما كنت لأفعل . فقال : فالموصل . فقال: لا والله ، فكره جعفر إغضاب أبيه ودافع الفضل ، وقرب عليه المواعيد ، وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شىء يطلقونه له من المال للحوادث سوى نفقاته ومايحتاج إليه هو وعياله . فعزم على الفصد ، فقال لجعفر : يا أخى — أنا على الفصد وأريد التشاغل بالنساء ، فكم تبعث إلى لما أهبه لهن ؟ قال : ما شاء أمير المؤمنين ، قال : عشرة آلاف درهم ، قال : وأين المال ؟ ولكن خمسة آلاف درهم . قال : فهاتها ، فبعث بها إليه ، ثم قال لجلسائه، وقد افتصد: أى شىء تهدون إلى ؟ ، فقال كل واحد منهم : قد أعددت كذا وكذا ، واحتال الفضل بن الربيع فى التخلص إلى منزله ، فرهن حقه من قطيعة الربيع ، وهو العشر على مائة ألف درهم عند عون الجوهرى الحرى ، فقال : إنى أريد أن أهديها إلى الخليفة ، فصيرها جددا ضربا ، فى عشرين بدرة ديباج ، مختمة بفضة ، وكان عون يحفظ للربيع يدا . فقال للفضل : أطابت نفسك عن جميع نعمتك فى هدية اليوم ؟ فأعلمه أن له عند الرشيد مواعيد ، فقال له عون : فإن عندى خادمين مسلولين (١) روميين أحدهما ناقد ، والآخر وزان . جميلى الصورة مراهقين ، وقد وهبتهما لك . وأحضره تابوت آبنوس محلى بالفضة .

---

(١) مخصيين .

فصير البدور فيه مع الموازين والصنجات ، وأقفل بقفل فضة ، وغشاه بديباج وكسا الغلامين الديباج ، وألبسهما المناطق والمناديل المصرية ، ووجه بهما وبالتابوت مع من يحمله إلى دار الندماء ، فلما ثنى الرشيد الدم ، قال : اعرضوا على هداياكم ، فقدمت هدية يحيى وجعفر والفضل بن يحيى من فاكهة ومشام ، وماأشبه ذلك ، وعرض عيسى بن جعفر وغيره هداياهم.فقال: للفضل بن الربيع : أين هديتك ياعباسى؟وبذلك كان يدعوه ، قال : أحضرها يا أمير المؤمنين ، فقال:تجده قد ابتاع هدية بخمسين درهما ، فقال للفراش : احملوها ، فحملوا شيئا راع الرشيد لما رآه،وكشفوا عن التابوت فاستحسنه . ثم حضر الغلامان ، ففتح أحدهما القفل ، فأخرج الموازين والأوزان ، وأخرج الآخر البدور ، ففتح بدرة بدرة ، واستوفى وزنها وختمها ؛ ولم يدر الرشيد ما يستحسن من جلالة الهدية ، واستطير فرحا ، وأمر بحمل المال ، وإدخال الغلامين إلى دار النساء ليفرقا المال على ما يأمرهما به ، وقال للفضل : ويلك ياعباسى !! ، من أين لك هذا ؟ ، قال : سيعرفه أمير المؤمنين ، قال : لتقولن . قال : بعت حتى من قطيعة الرسول لأسرك لما رأيتك قدقصدت وأنت مغموم. قال : والله لأسرنك ، وقام فدخل .

وانصرف جعفر يجر رجليه إلى أبيه ، فحدثه الحديث ، فكتب كتب الفضل على بريد الموصل وديار ربيعة وديار مضر ، وختمها وبعث بها إليه ، فردها وقال : لاحاجة بى إليها . ولم يزل يحمل الرشيد عليهم حتى أوقع بهم — فكان يكره ذكرهم بالخير ، ويكره أن يمدحهم أحد فى مجلسه . حتى إن أبا العتاهية حينما أنشده :

ولى الشباب فما له من حيلة ... وكسا ذؤابتى المشيب خمارا

أين البرامكة الذين عهدتهم ... بالأمس أعظم أهلها أخطارا

تغير لونه ، وظهرت الكراهية فى وجهه . وما رأى منه بعد ذلك خيرا .

وكذلك كانت نفوس البرامكة من الفضل : حقد وغل وحسد وموجدة ، وكانوا يكرهون أن يلوذ به أحد من ذوى الرأى والفضل والأدب حتى المغنين ، وكان يسخطهم على الناس أن يروهم فى بيته أو داخلين فيه أو خارجين منه . فلقد لقى الفضل بن يحيى البرمكى إبراهيم الموصلى المغنى خارجا من بيت الفضل بن الربيع ، فكان كأنه يترصده ، فلما وقعت عينه عليه ، ناداه : من أين يا أبا إسحاق ؟ أمن عند الفضل بن الربيع ؟ فقال إبراهيم : نعم ، غير متعذر من ذلك ، فقال : خروج من عند الفضل بن الربيع إلى الفضل بن يحيى ! هذان والله أمران لا يجتمعان لك ! ، فأجابه إبراهيم : والله لئن لم يكن فىّ ما يتسع لكما حتى يكون الوفاء لكما جميعا واحدا ، مافى خير . والله لا أترك واحدا منكما لصاحبه ، فمن قبلنى على هذا قبلنى ، ومن لم يقبلنى فهو أعلم . فقال له الفضل ابن يحيى : أنت عندى غير متهم ، والأمر كما قلت ، وقد قبلتك على ذلك .

ورد ابراهيم الموصلى على الفضل بن يحيى ، فيه جرأة وفيه قسوة ، وليس فيه رعاية لما للبرامكة من حرمة وموضع عند الخلافة فى ذلك الوقت ، إلا أنه ليس بمعقول أن يغالظ إبراهيم الموصلى الفضل البرمكى ويخاشنه ، إلا إذا كان يعلم حق العلم أن لابن الربيع منزلة وكرامة فى نفس الخليفة تساوى — أو على الأقل تدانى — منزلة البرامكة ؛ فهو يستطيع أن يحميه منهم ، ويدفع عنه أذاهم إن نقموا منه صلته به ووجدوا فى أنفسهم منه ؛ وإن فى ملاينة البرمكى له آخر الأمر وتركه على حاله فى الاتصال بابن الربيع دليلا على مكانهما جميعا فى نفوس البرامكة ، ولو أن ابن الربيع كان عندهم مقتحما مبذوءا ، لايرجى ولا يخشى — لحالوا بينه وبين إبراهيم مهما كلفهم ذلك .

٭٭٭

فالبرامكة لم يحسنوا أن يصطنعوا الفضل بن الربيع ؛ فإنهم كانوا على عظمتهم يخشونه ويتقونه ، ولكن إلى حد لا يجعلهم ينتقضون على أنفسهم ، أو يحدون

من سلطانهم . فهو مثلا يصير إلى يحي بن خالد ، ويسأله حاجة فيتقاعد عليه فيها ، فينصرف من عنده مغضبا ويقول :

عسى وعسى يثنى الزمان عنانه بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائك ويحدث من بعد الأمور أمور

فلما سمعه يحي امتقع وتأثر وقال : نعم يحدث الله من بعد الأمور أمورا ، ثم يقسم على أبى العباس ليرجعن ؛ ويتحمل هذه المسألة فى ماله ، ثم لا يبيت أبو العباس حتى يرضى .

هكذا كان يحي بن خالد فى مسألته إياه ، وما كان كذلك فى توليته بريد الموصل وديار ربيعة كما أمر سيدهم جميعا وخليفتهم هرون الرشيد . يحي بن خالد يخشى أن يماطل الفضل بن الربيع فى وجهه ، ولكنه يجرؤ أن يخالف الخليفة ، ويدافع الفضل ، ويقرب عليهم المواعيد ، وليس لذلك سبب أكثر من أن بريد الموصل وديار ربيعة فى يد ابنه جعفر ، فكره أن يخرج ذلك من يد ابنه إلى يد الفضل بن الربيع وإن كان فى ذلك مخالفة أمير المؤمنين .

ويظهر أن الفضل كان يحقد عليهم فى نفسه ، ولكنه كان ينتظر الفرصة المواتية التى يستطيع أن يتمكن بها من قلب الرشيد ، حتى إذا أمكنته الظروف من استيلائه على قلبه ، ثم من سوء تصرف البرامكة وطغيانهم ، وتناسيهم جلال الخلافة وجلال السلطان ــ استطاع أن يفعل مثل مافعل أبوه الربيع من قبل مع أبى عبيد الله زمن المهدى ؛ فمكن الله له بفضل سعايته ، كما مكن لابيه بفضل سعايته وشديد تأثيره وقدرته على اللف والدوران فى الكلام ، ومعرفة الأمور التى يجب أن تتبع فى مخاطبة الملوك .

ولقد بلغ من الدهاء ماجعله ينظر إلى هوى الخليفة أين يكون ، فيضع نفسه حيث يكون ذلك الهوى ، وحيث يقع من نفس صاحبه موقعا جميلا يجعله مقدما على غيره ، أثيرا عنده ؛ ولو كان ذلك الهوى فيمن يرجع بلحن ،

أو يطرب بنغم . حكى صاحب الأغانى فى الجزء السادس أنه لما مات المهدى وملك موسى الهادى ، أعطى الفضل بن الربيع بريده دنانير ، وقال : الحق بمكة ، فأتنى بابن جامع ، واحمله فى قبة ، ولا تعلمن بذلك أحداً ففعل البريد ذلك ، ثم ذكره موسى الهادى ذات ليلة ، فقال لجلسائه : أما فيكم أحد يرسل إلى ابن جامع ، وقد علمتم موقعه منى ؟ فقال له الفضل بن الربيع : هو والله عندى يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت الذى أردت ، وبعث إليه فاتى به فى الليل ، فأعجب الهادى بالفضل ، وولاه حجابته بعد أن أعطاه جائزة سنية .

وجرى يوما حديث بينه وبين الرشيد ، فقال له الرشيد : كذبت ! ، فلم يغضب ولم يتغير ، ولكنه أظهر لباقته وحسن تصرفه فى فنون الحديث ، وقال للرشيد : وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يخاطبك ، فنفى عن نفسه صفة الكذب فى لباقة بعبارة ضمنها مدح الخليفة بخير ما يمدح به الخلفاء .

٭ ٭ ٭

ظل كل من البرمكيين والفضل بن الربيع يجد فى نفسه على الآخر موجدة عظيمة انتهت بغدر الرشيد بالبرامكة ، وظل من بقى منهم حيا فى ذل السجن حتى عفى عنه بعد الرشيد .

وليس يدفع عن الرشيد مذمة السعاية ، أنه بعد نكبتهم حزن عليهم ، وندم على ما فرط منه فى حقهم ، وأطراهم وقرظهم ووصفهم وقال : كنا نعتب عليهم ، وقد صرنا نتمناهم ونبكى عليهم ، وكان يتمثل بقول حنظلة بن عرادة :

عتبت على سلم فلما فقدته ... وجربت أقواما بكيت على سلم

وبعد أن نكب الرشيد البرامكة لازمه الفضل بن الربيع ، وتولى الوزارة وغطى ميل الرشيد إلى الفضل على قلبه حتى أصبح لا يسمع عتب عاتب ؛ ولا لوم لائم ، وبلغ به ذلك أنه سأل يوما أحد خاصته : بأى شيء يتحدث الناس ؟ فقال: يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة ، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة !

فغضب وصاح به، وما أنت وذاك؟، ويلك!!، فأمسك صاحبـه ولم يزد شيئا.

وكان الفضل يحضر مجالس أنس الرشيد وطربه، ويصف له الجوارى بالحسن والإحسان والظرف والأدب، فيسأله أن تسخو نفسه بهن، وأن تكون له سلوة عنهن، فيسخو بهن، ويتمنى لو سخا بنفسه التى يفدى بها أمير المؤمنين فيغلب الجوارى أمير المؤمنين على قلبه. ومثل تلك الأمور لا تمر من غير أن تترك فى النفس أثرا حميدا تحمله الخلافة لصاحبها، وتقربه إليها، وتزيد مرتبته عندها؛ وبخاصة إذا كانت تأتى من ناحية حبيبة إلى من فرغ باله واترف عيشه

ولقد كانوا يستشفعون به عند الرشيد لعلو مرتبته وعظيم محله عنده وممن استشفع لهم أبو العتاهية، فإنه حينما وجد عليه الرشيد كتب إلى الفضل يستبطىء شفاعته.

أجفوتنى فيمن جفانى وجعلت شأنك غير شانى؟
ولطالما أمنتنى مما أرى كل الأمانى
حتى إذا انقلب الزما ن على صرت مع الزمان

فكلم الفضل فيه الرشيد، فرضى عنه.

وكان هو المدبر لأمره، والمختص به، وقاضى حاجات منـه، ورفيقه فى الحج، وعضده فى الغزو، وظل فى المحل الأول عنده، والمقدم على من سواه حتى إنه عند ما أراد أن يبنى بيتا له فى بغداد وهب له خمسة وثلاثين ألف درهم معونة له على بنائه، حتى إذا خرج إلى طوس اعتل بها، ثم ألحت عليه العلة حتى تحدث الناس بشأنها، فلما علم بذلك الأمين «وهو يعلم مكان الفضل من الخلافة» أرسل إليه كتبا يطلب اليه القفول إلى بغداد، والاحتياط على ما فى العسكر إن حدثت بالرشيد حادثة، فلما علم الرشيد بأمر هذه الكتب، طلب إلى الفضل بن الربيع أن يأمر حاملها وهو بكر بن المعتمر بإحضارها إليه،

---

(١) الأغانى جـ ٤

فأنكرها بكر ، فطلب الرشيد من الفضل أن يحتال عليه لأخذها منه ، وتسليمها إليه ، ولكن بكرا ينكر ويستمر فى إنكاره ، والفضل يتوعد ويتهدد ، ويعلم بكرا أنه إن لم يقدم الكتب بلغ منه غاية المكروه ، فأقام بكر على الجحود والإنكار مع أنهم قنبوه من قرنه إلى قدمه ، فأيقن بالموت ويئس من نفسه ، وتوقع خروجها ، وكاد يعمل على الإقرار ، ولكنه لا ييأس من الفرج وبينا هو فى أسوإ حال إذ به يسمع ناعيه ، وإذا بالفضل بن الربيع يقبل عليه ينعى إليه أمير المؤمنين ، فيعلم أن الله أنجاه ، وأنه قد بدأ حياة جديدة فاطمأن على نفسه ، وأخرج الكتب من حيث هى ، وسلم كتب الفضل إليه .

إذن خرج الرشيد من الدنيا . وآل أمر الخلافة إلى ابنه الأمين ، وتوشك أن تشب نار الخلافة بين الأمين والمأمون ؛ فإلى أيهما ينحاز الفضل بن الربيع؟ إنه ينحاز إلى محمد الأمين ، لأنه ولى العهد ، ولأن له فيه ثقة ، ولأنه يستطيع أن يؤثر فيه ، ولأنه ليس معه من هو مثل الفضل بن سهل ، فينازعه السلطان والتسلط على الخليفة . إذن انضم الفضل بن الربيع إلى الأمين ، وخرج الأمين به وكتب إلى أخيه المأمون كتابا جاء فيه : واضمم إلى الميمون بن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين ـ رحمه الله ـ وحرمه وأهله ، وأمره بالمسير معهم فيمن معه من رابطته وجنده . ويقول فيه أيضا مخاطبا المأمون : وإياك أيضا أن تنفذ رأيا ، أو تبرم أمرا ، إلا برأى شيخك ، وثقة آبائك : الفضل ابن الربيع ، وأقر الخدم على مافى أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، ولا تخرجن أحدا منهم عن ضمن مايلى إلى أن تقدم على به ، وإن أمرت لأهل عسكرك بعطاء أو رزق ، فليكن الفضل بن الربيع المتولى لإعطائهم على دفاتر يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين ، فإن الفضل بن الربيع لم يزل يتقلد مثل ذلك عند مهمات الأمور .

فالفضل بن الربيع هو الميمون بن الميمون ، وهو الأمين على حرم الرشيد

وولده وأهله ، وهو ثقة الرشيد والمهدى – فلا عجب أن يكون ثقة الأمين أيضا ، وإذا كان ثقة الأمين ، فإن المأمون لا يتصرف إلا بإذن منه ، وبعد إجازته . ولذلك لم يكن غريبا أن يجد الفضل بن الربيع فى المسير إلى بغداد من غير أن يعرج على المأمون ، أو يلتفت إليه ، ولم يقبل من رسوله الذى أرسله فى أثره ، ولم يلتفت إليه أيضا . لذلك كان طبيعيا أن يحقد عليه المأمون ، وأن يحقد هو على المأمون بعد ذلك ، لأنه أصبح لا يأمنه على نفسه ، فهو لهذا يغرى الأمين بخلع المأمون ، وبالإيصاء لابنه ، إذ قد تحدث للأمين حادثة تذهب بحياته . فيقع هو فى نار المأمون يصطليها حرى مبيدة . فهو بعد أن ورد عليه من بغداد ، وتولى العرض عليه أغراه بالمأمون ، وحمله على أن يكتب إليه يسأله التجافى له عن بعض الأعمال بخراسان ، ويخبره أنه سيرسل إليه رجلا يتقلد البريد من قبله ليكاتبه بأخباره ؛ ثم زاد أن حرمه مالا كان أبوه الرشيد اوصى له به ، ومانع من كان ببغداد من حرمه وولده . وبسبب هذه التصرفات التى عامل بها الأمين أخاه المأمون أو التى عامل بها الفضل بن الربيع ولى عهد الخلافة – استوحش المأمون ، واستحكمت وحشته ، وعلم مذهب أخيه فيه ، وأخذ فى أهبة التحرز منه .

٭٭٭

استوثق الأمر لمحمد الأمين ، فأخذ الفضل بن الربيع يزين له خلع المأمون ، فلما أجمع على ذلك بتأثير الفضل له ، لم يسمع النصيحة من مناصحيه ، واعتقد أن الرشيد أخطأ فى جعل ولاية العهد للمأمون ثم القاسم من بعده ؛ وكل من حاول صرفه عن هذا الأمر أو تأجيله ، وتذكيره بوعد أبيه – نهره . واستعظم المخلصون للخلافة أن يقع من الأمين ذلك ، مع ما وكده من البيعة ، وتوثق فى عهده عند خاصته وعامته .

وكان الأمين يرى أن ذلك كان فلتة من فلتات الرشيد ، وخطأ من رأيه شبه عليه فيه جعفر بن يحيى بسحره ، فغرس لهم غرس مكروه لا بد من قطعه

والذى يرى غير ذلك الرأى ، هو فى اعتقاده رجل مهذار ليس بذى رأى مصيب ؛ ولكن الرأى إلى الشيخ الموفق ، والوزير الناصح : الفضل بن الربيع.

إذن لا بد من خلع المأمون وأخيه ، ولا بد من البيعة للناطق بالحق ابن الأمين ولذلك كتب الفضل بن الربيع بذلك إلى العمال ، وينهى عن الدعاء لها على المنابر ، ويرسل من يسرق الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى بيت الله الحرام بالبيعة ، ويمزقهما ، فيستوحش الناس من الأمين ومستشاره الفضل ، ويغضب المأمون ، ثم تقوم بينهما حرب يقتل فيها قواد الأمين ، وتضطرب الأمور فى يد الفضل بن الربيع ، فيحاول أن يلقى التبعة ، على الأمين نفسه ، ويحدث نفسه يوما فى صحن داره ، ويقول عن الأمين : ينام نوم الظربان ، وينتبه انتباه الذئب، همه بطنه ، لا يذكر زوال نعمة ، ولا يروى فى إمضاء رأى ؛ قد شغله كأسه ولهوه عن مصلحته ، والأيام توضع فى هلاكه . ثم يأتى ببعض خلصائه ، ويستنجد بهم ، ويقول لهم : إنما نحن شعب من أصل إن قوى قوينا وإن ضعف ضعفنا ، وإن هذا الرجل (يعنى الأمين) قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء، يشاور النساء ، ويخلد إلى الرؤيا ، وهو يتوقع الظفر ، ويتمنى عقب الأيام ، والحتف أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ، وقد خشيت والله أن نهلك لهلاكه ، ونعطب لعطبه . ثم يغرى أسد بن يزيد بن مزيد بالمأمون ، ويرجوه أن يقود له الجيوش بعد قتل على بن عيسى ، ويفزع إليه فى لقاء طاهر ابن الحسين ؛ لأنه صادق الطاعة ، فاضل النصيحة ، ميمون النقيبة ، شديد البأس ؛ ولكن أسدا يشتط عليه ، فيما يلتمسه من الأموال والعتاد والرجال والسلاح، فيغضب الفضل ويصير به إلى محمد الأمين ، ثم يحبسه .

إذن يتنكر الفضل للأمين ، ويتحدث بما فيه من عيوب شخصية وخلقية ، ويسرف فى ذلك ، وهو يعلم أن ذلك ليس من الحنكة السياسية ، ولكن صدر المرء إذا ضاق بصاحبه جرى ذكر عوراته على لسانه من غير أن يقصد إلى

ذلك ، إلا أن الفضل يعرف أن فشل سياسة الأمين فشل سياسته ، وأن نصرة المأمون خذلان له ، وعاقبتها وبال عليه ؛ ولذلك تراه يحاول أن يصد جيوش المأمون عن بغداد ، ويحاول أن يجمع الناس حول الأمين ؛ وإذا شئت تعبيراً أدق وأصرح ، قلنا يحاول أن يجمع الناس حوله ؛ لأن الأمور كلها أصبحت مزمومة فى يديه ، وكان يجرؤ أن ينكر على خليفته مايراه فيه من خروج عن الحد الذى تقف عنده هيبة الخلافة ، وتبتذل إذا تخطته — حكوا أنه عزم يوما على الاصطباح وأحضر ندماءه والمغنين ، وصفت الموائد ، فلما ابتدأ ليأكل دخل عليه إسماعيل بن صبيح فقال : ياأمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذى وعدتنى فيه أن تنظر فى أعمال الخراج والضياع . وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على أعمال منذ سنة لم تنظر فى شىء منها ، ولم تأمر فيهـــا ، وفى هذا دخول خلل فى الأعمال . فقال له : إن اصطباحى لايحول بينى وبين النظر ، وفى مجلسى من لاأنقبض عنـه من عمى وبنى عمى وإخوتى ، وهم أهل هذه النعمة التى يجب أن تحاط ، فأحضر ماتريد عرضه فاعرضه على وأنا آكل ؛ لأتقدم إليك فيه بما تحتاج إليه إلى أن يرفع الطعام ثم أتم النظر فيما يبقى ، ولا أسمع سماعا أو أبرم الباقى وأفرغ منه . وإذذاك يحضر كتاب الدواوين بأكثر مافى دواوينهم ويقبـل إسماعيل يقرأ عليهم والأمين يأمر وينهى بأحسن نهى وأشده ، وكان يشاور من حوله فى الشىء بعد الشىء ، حتى إذا انتهى من طعامه دعا بنبيذ فشرب ثم شرب ، وكان الفضل بن الربيع حاضرا فلحق الأمين وشق ثوبه بين يديه ، ورفع صوته يقول : الله ، الله أعدل من أن يرضى أن يكون مدبر أمور أمة نبيه محمد ﷺ من هذه أفعاله . فضحك الأمين ولم ينكر على الفضل ماقال « الوزراء والكتاب ص ٤٥ »

هذه القصة وأشباهها مما يدل على مجون واستخفاف ، يرويها المؤرخون ، ولا ينكرونها أو يثبتونها بتحقيق أو تدقيق ، ونحن وإن كنا نقرؤها فيما نقرأ

من كتب التاريخ والأدب ، فإنه يعز علينا أن ننسب مثلها إلى خلفاء المسلمين فى تلك العصور المتقدمة والإسلام مازال فى عنفوانه .

مثل تلك الأقاصيص التى نعتقد أنها موضوعة أو مبالغ فيها حبكها الكسرويون ، أو الذين ينتسبون إلى أحزاب هواها فى غير الأمين : من المأمونين أو الطالبيين أو غيرهم ، إلا أنها مع ذلك تدل على ما كان للفضل من جرأة على الأمين فى مخاطبته . ولعل الكثيرين يعرفون قصة ملاعبة الأمين والفضل بالنرد التى قمر فيها الأمين الفضل وأخذ منه خاتمه ، فإن قصة الخاتم انتهت بغضب الفضل الذى لم يتمالك نفسه وقال : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . هذا خاتم وزيرك ، يختم به على جميع الآفاق . إلى أن قال: والله ما بغيت من هتك نفسك عند أوليائك ، والمنافقين لك والمطرحين ببغضك شيئا ، إلا وقد أنبته ، وما يضر ذلك الفضل ولا الربيع ، والله المستعان . فالفضل يغضب ويحتد على خليفته ويكلمه كلاما شديداً . والأمين لا يزيد على أن ينظر إليه ، ويضحك له ! !

* * *

وكان الفضل على عادة غيره من وزراء الأعاجم ، مبسوط اليد كثير النوال مقرباً للشعراء ، يملأ جيوبهم بالبدر ، فتنطلق ألسنتهم بالمدح ؛ وممن مدحوه أبو نواس وأبو العتاهية وغيرهما . ومن قول أبى نواس فيه :

أنت يابن الربيع علمتنى الخير ... ر وعودتنيه والخير عاده

وقوله :

مامن يد فى الناس واحدة ... كيد أبو العباس مولاها
نام الكرام على مضاجعهم ... وسرى إلى نفسى فأحياها

وممن مدحه إسحق بن ابراهيم ، قال :

مد لك الله الحياة مداً ... حتى يكون ابنك هذا جداً

مؤزرا بمجده مردّى ثم يفدى مثلما تفــدى
أشبه منك سنة وخدا وشيما مرضية ومجـداً (١)
كأنه أنت إذا تبـدى شمائلا محمــودة وقدا

وغنى له إسحق بن إبراهيم الموصلي ، وعلوية ومخارق .

وحدث حبيب بن الجهن النجدى أنه حضر الفضـل بن الربيع متنجزاً جائزته. فرأى عونا حاجب الفضل يخبر أن أبا العتاهية بالباب، فلم يأذن له خشية أن يمنعه من الركوب وكان قد تهيأ له ، فلما علم أبو العتاهية أن الوزير على الركب أخرج من كمه نعلا عليها شراك وأهداها إلى الفضل فقرأ حبيب الـكتاب المكتوب على الشراك فإذا هو :

نعـل بعثت بها ليلبسها قدم بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشركها خدى جعلت شرا كها خدى

فأعجب الشعر الفضل وحمله معه إلى الأمين وقرأه عليه ، فوهب لأبى العتاهية عشرة آلاف درهم .

٭٭٭

سا ت حال بغداد وانفل الناس عن الأمين ، وساءت مقالتهم فيه ، وفى وزيره الفضل بن الربيع ، وتمزقت الأموال التى كانت فى يده ، وتقدمت جيوش المأمون فلم يطق الفضل صبرا على البقاء فى بغداد واختفى سنة ١٩٦ هـ وكان يظهر فى بعض الفتن التى تقوم ضد المأمون ، فإذا أخمدت الفتنة أو كادت عاود اختفاءه . وأراد بعض أصدقائه أن يحفظوا عليه داره ، ويرعوا حرمة أهله وولده فسا كنوهم فى بيته ، وأعانوهم بالمال ، ودفعوا عنهم بقوة السلطان حتى إذا ظهر الفضل ، وأمنه المأمون ، رد عليه داره ، واعتزل هو ومن بقى من البرامكة ميادين السياسة ، وا كتفوا بأن يعيشوا كما يعيش الناس . ومع

(١) السنة : الوجه لصقالته وملاسته ، أوهى الجبهة والجبينان .

ذلك فإن الأحداث التى نزلت بهم لم تطهر قلوبهم من غل الحقد ، ولم تطلقها من أسار الكراهية ، فظل كل منهم فى مكانه بالنسبة لأخيه ، وإن كانت دائرة الكيد والدس قد ضاقت ؛ لأنهم أصبحوا لا يتنافسون على حكم ، ولا يتزلفون لسلطان . وإن المحاورة التى جرت بين علوية وإسحق بن إبراهيم الموصلى فى مجلس الفضل بن الربيع ، لتعرفك ما بقى لهم من المنزلة فى نفوس الناس بالرغم من بعدهم عن السلطان ، ونعيم الحكم أو جحيمه .

حدث صاحب الأغانى فى الجزء الخامس ص ٣٠٦ على لسان أحمد بن يحي المكى ، قال : « دعانى الفضل بن الربيع ، ودعا علوية ومخارقا ، وذلك فى أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه ، إلا أن حاله كانت ناقصة متضعضعة ، فلما اجتمعنا عنده كتب إلى إسحق الموصلى يسأله أن يصير إليه ، ويعلمه الحال فى اجتماعنا عنده » فأبطأ إسحق عليهم ، ثم وافاهم ومعه غلامه يحمل قطرميز نبيذ ليشرب منه فلما نقد لعلوية غناءه عتب عليه علوية تأخره عن مباكرة الفضل ، وإحضار شرابه معه ترفعا عن شراب الفضل ، ثم قال له : « أما والله لو الفضل بن يحي أو أخوه جعفر دعاك إلى مثل مادعاك إليه الأمير — بل بعض أتباعهم — لبادرت وباكرت وما تأخرت ولا اعتذرت » اه ص ٣٠٧ من المصدر نفسه . فأنت ترى أن علوية يعتب على إسحق ويعنفه ، ويوازن بين طاعته للفضل وطاعته للبرمكيين ؛ وهذا يدل على أن كلا منهما كان مازال ينظر إلى الآخر نظر المغيظ المحنق مع أن دولتهم جميعا قد دالت .

٭٭٭

فلما انحطت منزلة الفضل فى دار المأمون وفى نفوس الناس ، كانت تعود إليه ذكرى أيامه الأولى ، فكان يتمثل كثيرا بقول أبى العتاهية :

ما الناس إلا للكثير المال أو لمسلط مادام فى سلطانه
فإذا الزمان رماهما ببلية كان الثقات هناك من أعوانه

ولو أنه أخلص النصح للأمين ، ولم يزين له خلع أخويه من الخلافة ، ولم يعكر مابينه و بينهما ، وترك الأمور تجرى فى الحدود التى رسمها الرشيد ، ورعى حرمة ولاية العهد ، وجرى على رغبة الرعية — لو أنه فعل ذلك كله لتغير وجه التاريخ الإسلامى فى تلك الحقبة من الزمان،ولما كانت نهاية الأمين تلك النهاية السيئة التى تعد وصمة فى جبين التاريخ الإسلامى .

ولكنا نرجع ونقول : العبد يريد ، والله يريد . ولا يكون إلا مايريد الله ؟ .

محمد أحمد برانق
بالمدرسة الإبراهيمية

فى الأدب الانجليزى الحديث

الراحـــــــــة

بقـــلم

ألدوس هكسلى ALDOUS HUXLEY

«لكل قارىء ذوقه الأدبى الخاص الذى يسيغ به مايقرأ من شعر أو نثر، وله حكمه العقلى الذى يحكم به على الأدباء وإنتاجهم، متأثرا بتربيته وبيئته ومقدار اطلاعه على أدب لغته والآداب الأخرى، ومن أجل هذا أرانى أفضل أن أترك الحكم على الكاتب أو الشاعر الذى أترجم له ليكون القارىء فى حل من إصدار حكمه على آراء الكاتب أو أسلوبه أو تجديده فى الفكرة، أو مدى انتفاعه وتأثره بغيره من الأدباء. ومن أجل هذا اقتصرت فى ترجمة « ألدوس هكسلى » على القدر الضرورى الذى يعرف القارىء به، ثم ترجمت له هذا المقال عن الراحة ليجد فرصة يطلع فيها على تفكير كاتب من مشاهير كتاب الانجليز فى القرن العشرين»

عبد الرزاق حميده

أرى من الخير قبل أن أعرض هذا المقال على القراء أن أعرفهم بكاتبه العريق النسب فى الأدب الإنجليزى.

فهو ألدوس هكسلى بن ليونارد هكسلى من كتاب التراجم المشهورين. وجده توماس هكسلى العالم الأديب ذائع الصيت فى العصر الفكتورى. وأمه قريبة ماثيو آرنلد. وخالته مسز همفرى وود الكاتبة القصصية، فليس من الغريب بعد هذا أن يهب هذا الكاتب حياته للأدب فى مختلف نواحيه.

ولد فى سنة ١٨٩٤ وتلقى دروسه الأولى فى كلية إيتون الخاصة بأبناء الأعيان الإنجليز ، وكان يريد أن يدرس الطب لولا أن أصابه عمى مؤقت منعه من الاستمرار فى الدراسة.فانتقل الى أكسفورد،ودرس الأدب الإنجليزى ونال الدرجة فيه .

وفى سنة ١٩١٦ انضم الى جملة المحررين والكتاب فى مجلة « شعر أكسفورد Oxford Poetry » ويقول عن نفسه : «قضيت السنتين الأوليين من الحرب فى أكسفورد ، وقضيت مابقى منها فى قطع الأشجار ، والعمل فى وظيفة حكومية بقدر ماسمح لى نظرى ، وفى التعليم فى مدرسة » واشتغل بعد ذلك محررا فى جريدةو ناقدامسرحيالجريدةوستمنستر «Westminster Gazette » وكتب فى أثناء ذلك مقالات وقصصا صغيرة . وقد لمع نجمه حوالى ١٩٢١ ونشر أول مجموعة من مقالاته سنة ١٩٢٣ تحت عنوان «على الهامش» . وأهم كتبه هو « الدنيا الجديدة الجريئة» . وقد شغل نفسه فى الأيام الأخيرة بطبع خطابات د . ه . لورنس .

أما هو فطويل نحيل ، قوى الإحساس ، دائم الحركة ، أديب كثير الإنتاج ، وهبه الله قدرة عظيمة على التهكم عظيمة ، ويعيش فى إيطاليا الآن ، ولايزور باريس أو لندن إلا لماما .

أما المقال الذى كتبه عن الراحة ، وهو حديث اليوم فهو :

« الراحة أو الظاهرة الجديدة » ويسميها أصحاب الفنادق من الفرنسيين «الراحة الحديثة» وهم على حق فى هذه التسمية ، لأن الراحة حديثة النشأة ، أصغر سنا من البخار وكانت طفلة عند ماولد البرق ، ولا تكبر المذياع إلا بجيل . وإن اختراع وسائل الراحة وتتبعها ، واعتبارها غاية يسعى إليها ، ظواهر حديثة لانظير لها فى التاريخ منذ عهد الرومان

وقدكانت شدة الصلة بيننا وبين هذه الظواهر سبباً فى أن نتقبلها بقبول

حسن ، وألا نعبأ بما فيها من غرابة ، ولاجدة . ولا نهتم بما لها من قيمة . فالكرسى اللين ، والفراش الناعم والأرائك . والتدفئة بأنابيب الماء الساخن ، والحمامات الساخنة ، وغيرها من وسائل الراحة يعرفها ويتمتع بها كثير من الطبقة الوسطى ، ولم يكن يعرفها الملوك والأباطرة من ثلثمائة عام .

وأول مايلفت النظر فى الشقاء الذى عاش فيه أجدادنا أنه كان إلى حد كبير اختياريا .

وإذا كان بعض وسائل الراحة الحديثة جديد الاختراع كإطارات العجلات من المطاط التى لم تعرف قبل اكتشاف أمريكا الجنوبية ونبات المطاط ، فإن كثيراً من المواد الأولية التى استخدمها الحديثون لجلب الراحة ليست جديدة . وقد كان فى قدرة الناس أن يصنعوا الأرائك ، وكراسى حجرات التدخين ، وكان فى استطاعتهم أن يوسعوا الحمامات وأن يدفئوا بيوتهم بالماء الساخن يجرى فى الأنابيب إلى حجرات المنازل عاليها وسافلها ، وأن ينشئوا أقساما للنظافة العامة ويصلوا بيوتهم بها فى أى زمن من الثلاثين أو الأربعين قرنا الماضية ، وقد كانت هناك محاولات كهذه ، واستطاع بعض الناس أن يستمتعوا بهذه الوسائل أحيانا . ومن هؤلاء الرومان الذين اهتدوا إلى التدفئة بوساطة الهواء ، واشتملت حماماتهم الخاصة على أدوات للاستحمام لا تصل إلى التفكير فيها أحلام القرن العشرين . فكانت هناك حجرات تسيل العرق ، وحجرات للتدليك ، وحجرات للتجفيف ، وأرائك للراحة بعد الحمام. وأما الحمامات العامة فكانت فخمة جداً حتى قال « سنكا » : « لقد وصلنا فى الكماليات إلى درجة عظيمة ، وأصبح الواحد منا لا يرضى إلا أن يمشى فى حمامه على لآلىء » . وأما مساحة الحمام الواحد فكانت كبيرة جداً تتناسب مع عظمتها وزينتها ، حتى إن حجرة واحدة فى حمام من حمامات الإمبراطور ديوكلتيان (٢٨٤ — ٣٠٥ م) كانت كافية لبناء كنيسة كبيرة مكانها.

ومن السهل أن نضرب غير هذه الأمثال للدلالة على أنه كان من المستطاع أن يجعل آباؤنا حياتهم مريحة بما كان عندهم من وسائل محدودة للراحة ، وإذا كان أهـل العصور الوسطى والذين عاشوا فى أوائل العصور الحديثـة قد اختاروا حياة تاعسة لا راحة فيهـا ، فذلك لأنهم قد فضلوا حياة التعب على غيرها ، ولأن القذارة والتعب قد ناسبا مبادئهم وتعصبهم السياسى والخلقى والدينى

الراحة والحياة الروحية .

ولـكن هل هناك علاقة بين الراحة والنظافة ، وبين السياسة والأخلاق والدين ؟

قد نقول ـــ إذا لم نمعن النظر ـــ إنه لا يحتمل أن تكون هناك علاقة بين الكراسى الوثيرة والديموقراطية . ولا بين الأرائك وانحلال نظام الأسرة . ولا بين الحمامات الساخنة وانحطاط الطهارة المسيحى . ولـكن النظر الدقيق يهدينا إلى قوة الصلة بين نمو وسائل الراحة فى العصر الحديث ، وبين تطور الأفكار ، وأرجو أن أوفق فى هذا المقال إلى بيان هذه الصلة ، وأن أوضح السبب الذى جعـل من المستحيل على الأمراء الإيطاليين فى القرن الخامس عشر ، وعلى عصر إليزابث ، ولويس الرابع عشر ، أن يعيشوا فى مثل النظافة والحياء اللذين كان يتمتع بهما الرومان ، وأن يستمتعوا بما نراه اليوم ضروريا لنا .

ولنبدأ بالـكراسى المريحة والتدفئة بأنابيب الماء الساخن فنقول : إنها أصبحت ممكنة بعد القضاء على نفوذ الملوك ورؤساء الإقطاع ، وانحطاط السلطان المقدس الذى كان لرب الأسرة على أفرادها ، وللـكبير فيها على الصغير ، ومن الممكن الآن أن يستلقى الشخص على كراسى حجرة التدخين ، وعلى الأرائك . وليس

الاستلقاء الآن من وسائل العظمة ، ولا دلائل الاحترام . وإذا أردنا إهانة شخص أقل منا فلا يكون ذلك بالاضطجاع فى كرسينا حتى تحاذى رءوسنا أرجلنا . بل يكون ذلك بالاعتدال فى المجلس وتكلف العظمة . وإذا أردنا أن نظهر الأدب لسيدة أو الاحترام لعجوز أو شخص مهم اعتدلنا فى مجلسنا أو وقفنا .

وفى القديم كانت الجماعة الإنسانية محكومة بقوانين مقدسة، وكان على كل شخص فيها أن يبدو أمام من هم أقل منه عظيم الشخصية ، ومؤدبا أمام من هم أعلى منه منزلة . وكان من المستحيل فى مثل هذه الجماعة أن يتمتع المرء بحريته فى الجلوس كما نستمتع اليوم .

ولم يكن من الممكن للويس الرابع عشر مثلا أن يستمتع بحرية تامة فى مجلسه أمام رجال البلاط كما كان من المستحيل عليهم ذلك فى حضرته . ولم يكن يسمح لنفسه بهذه الحرية على ملأ من الناس إلا إذا حضر مجلس البرلمان ، فكان يستلقى على ظهره فى « كرسى العدل » بينما يجلس الأمراء ، ويقف كبار الضباط ، ويركع الصغار منهم ، وكانت الراحة ميزة خاصة بالملك ، وله وحده الحق فى أن يمد رجليه إذا شاء . ومن المؤكد أنه كان يمدهما بطريقة ملكية خاصة . ولم يكن التحلل من القيود إلا بقدر . وإذا جلس الملك فجلوسه على شكل خاص وفى مكان مرتفع . وكان على رجال البلاط أن يبدوا فى شكل آخر . وإذا جاز لبعض ذوى الدم الأزرق منهم أن يجلسوا فليجلسوا على دَكة .

وما كان يجرى فى قصور الملوك كان يجرى نظيره فى قصور الأعيان ، وكان للوالدين فى محيط الأسرة حكم الأمراء أو البابوات . فهم ملوك يحكمون بالحق الإلهى . والأبناء هم الرعية . وقد أخذوا الوصية الخامسة فى أيديهم بجد ، حتى إن غلاما قتل علنا لاعتدائه على والديه فى أيام سيادة قوانين كلفن فى جنيف .

ومع أن استلقاء الطفل فى كرسيه لم يكن من الكبائر إلا أنه كان عملا لا يدل على الاحترام ، وكان عقابه الجلد والجوع والسجن . حتى إن « جونزاجا » أحد حكام مانتوا فى إيطاليا ، ركل ابنه فقضى عليه لأنه نسى أن يلبس قبعته، وهو يحيي أباه . ولا ندرى ماعقابه لو أنه لم يجلس معتدلا فى كرسيه . وإذ كان محرما على الأطفال أن يجلسوا مستلقين على كراسيهم ، فقد كان ذلك محرما على الآباء كذلك خشية أن تنحط قيمتهم فى أعين أولادهم ، ومن هذا نرى أنه كان من المستحيل فى الجماعات الأوروبية منذ قرنين أو ثلاثة أن يستلقى إنسان فى كرسيه بحضرة أى إنسان آخر . وكان فراش البيت متمشياً مع هذه النظم والقوانين التى تحكم بها الجماعة فى تلك الأزمان، وكان فى مقدور صناع الأثاث أن يجعلوا الكراسى مريحة والأرائك مماثلة لأرائك اليوم، ولكن نظام الجماعة باعد بينهم وبين التفكير فى هذا .

ولم يصبح الكرسى عام الاستعمال إلا فى القرن السادس عشر وكان من قبله رمزا للسلطان.

ورجال البرلمان الآن وأعضاء اللجان يستريحون فى مجالسهم ويستلقون فى كراسيهم ، ولكن السلطة مازالت للجالس فى الكرسى أو الرئيس (Chairman) ، وكانت فى القرون الوسطى للعظماء فقط . فإذا سافر عظيم منهم أخذ معه كرسيه لئلا يظهر لحظة واحدة بعيدا عن مظهر سلطته وعزته .ومازال للعرش ماللتاج من قوة الرمز إلى السلطان.

ولما جاءت النهضة وظهر العصاميون الأغنياء ظهرت معهم الكراسى، وابتدأت تكون حقا لغير العظاميين . ولكن الجلوس فيها كان مقيدا بقيود تجعلها غير مريحة . وكان شكل الكراسى فى القرن السادس عشر أشبه بالعروش ، حتى أغرت الجالسين فيها فتكلفوا العظمة . ولما جاء القرن الثامن عشر انحلت قيود النظام الاجتماعى المقدس . وعند ذلك أخذ الأثاث

المنزلى يكاد يكون مريحا . وحتى فى ذلك الوقت لم يكن الاستلقاء على الكراسى مسموحا به . ولم تعرف الكراسى المريحة والأرائك التى يستطيع أن يستلقى الإنسان فيها أو يجلس مضطجعا ويهز رجليه إلا بعد أن رسخت أقدام الديمقراطية ، وغنيت الطبقة الوسطى ، وتحررت المرأة ، وانحلت قيود الأسرة القديمة .

التدفئة بأنابيب المياه الساخنة ونظام الاقطاع :

هناك عامل آخر فى الراحة الحديثة هو تدفئة المنازل ، وقد كان مستحيلا على حكام الأراضى على الأقل بسبب النظام السياسى للجماعات فى القديم . وكان الدهماء أكثر حظا فى هذا من العظماء ، إذ كان من السهل تدفئة البيوت الصغيرة ، أما العظماء والأمراء والأسقف الأعظم والملك نفسه فقد كانوا يعيشون فى قصور عظيمة تتناسب مع مركزهم الاجتماعى ، وليبرهنوا على أنهم أعظم من غيرهم كانوا يستقبلون ضيوفهم فى أبهاء فسيحة جدا ويمشون فى مواكب مهيبة فى هذه الأبهاء التى تشبه أنفاق جبال الألب طولا وهواء ، أو يصعدون وينزلون سلالم تشبه جنادل النيل لو كانت من الرخام . وكان العظيم فى ذلك الوقت ينفق معظم وقته فى إقامة حفلات فخمة ، ويحيى ليلات عظيمة تحتاج إلى حجرات كثيرة من أجل الممثلين والمدعوين ، وذلك يدلنا على ما كانت عليه الحجرات من سعة فى هذه القصور الفخمة ، فقد كان يصل بعضها إلى مائة قدم طولا وثلاثين ارتفاعا . ما أعظمها وأفخمها ! ولكن ما أبردها ! ولا نتصور أن يفكر فى بناء مثلها أى عصامى من رجال المال فى العصر الحديث ، الذين يضحون بالعظمة فى سبيل الراحة .

وكان أصحاب تلك القصور يضطرون فى ليالى الاحتفالات أن يجلسوا ساعات طوالا يرقبون التمثيل فى حجرات باردة ، تصفر رياحها ، وتعصف فى جوانبها تيارات قوية من الهواء .

ولقد عشت فى إيطاليا فى قصر من هذه القصور ، وأذكر أن حجرات النوم فيها تصلح صالات للرقص ، وحجرات الجلوس أشبه بمحاط سكك الحديد ، وأما السلالم فتسمح لعدد من السيارات الكبيرة أن يمشى بعضه بحذاء بعض . ولكن الريح العقيم التى تهب من جبال « أبناين » تجعلها لا تطاق .

الحمامات والأخلاق

إنا لمدينون بالعاملين السالفين من عوامل الراحة إلى ضعف الملكية والارستقراطية ونظام الجماعات . والعامل الثالث من هذه العوامل هو الحمامات، وترجع العناية به الى ضعف الأخلاق المسيحية . مازالت مدارس الأديرة منتشرة فى أوربا وفيها يتعلم البنات أن الأجسام الإنسانية أشياء دنسة . وأن النظر اليها خطيئة للأجانب ولأصحابها على السواء . وعلى هذا فلابد لهن أن يسترن أجسامهن وقت الاستحمام بقمصان تصل إلى ماتحت الركبة . وقد تعلمن طريقة خاصة فى لبسهن . لاتسمح أن يظهر منها إلا قليل . وهذه المدارس غريبة الآن لحسن الحظ . ولكنها كانت ذات نفوذ عظيم فى الماضى القريب والبعيد . وكانت تخضع لتعاليم الكنيسة التى تقول بتضحية الجسم كلية ، وظلت هذه التعاليم سائدة من عهد القديس أنتونى والقسيسين الذين كانوا لا يستحمون ويجوعون ويكفون عن شهوات بطونهم وفروجهم إلى العهد الحاضر، ويرجع تمتع النسوة الآن بالاستحمام الكثير إلى ضعف هذه التقاليد .

لم يكن المسيحيون الأولون يهتمون بالاستحمام ، ومن العدل أن نقرر أن تحمس المسيحية للروح ضد الجسم لم يكن معاديا خلال الأزمان كلها للنظافة، وقد كان من الطبيعى أن يعارض آباء الكنيسة الأولون الطريقة الرومانية المزعجة فى الاستحمام لاختلاط الجنسين فيها . ولكن المعتدلين منهم قد سمحوا بالاستحمام أحيانا مادام الحياء ملحوظا . ولقد كان القضاء على الحمامات

الرومانية العظيمة ناشئا من معارضة الرهبانية المسيحية ، كما كان بسبب إتلاف البرابرة لها . ونشط الاستحمام فى « عصور الإيمان » وعاد الصليبيون من الشرق بنظام حمامات البخار التى أصبحت محبوبة فى كل أنحاء أوربا بعد ذلك، ولكنها فقدت مركزها لسبب لا يعرف . وأصبح الرجال والنساء فى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر أشبه فى القذارة بآبائهم البرابرة . ولعل النظرية الطبية عندهم ، وتقاليد البلاط كانت مسئولة عن هذا التذبذب .

ومن الملاحظ أن التحريم الدينى يكون قويا دائما فى كل ما يتعلق بالنساء، ويخبرنا جنكور Goncourts من مؤرخى القرن التاسع عشر أن قلة الحياء وضعف الأخلاق فى النساء يرجعان إلى كثرة الاستحمام بينهن فى أيام الإمبراطورية الثانية وكانت نتيجة ذلك أن « على البنات أن يقللن من الاستحمام » وإن سيدات اليوم اللاتى يتمتعن بحظهن من النظافة لمدينات : لفولتير لتهكمه وسخريته من التحكمات التى لا أصل لها من العقل . وللماديين من علماء القرن التاسع عشر . ولولم يوجد هؤلاء الرجال للقضاء على مدارس الأديرة لبقيت عند بناتنا من الحياء والقذارة ما كان عند جداتهن .

الراحة والطب :

يرجع الفضل الآن للأطباء فى انتشار الحمامات وشيوع الاستحمام ؛ فإن اكتشاف الجراثيم جعل للنظافة مركزا ممتازا ، وقيمة مختلفة عن قيمتها القديمة . فنحن نستحم الآن متحمسين للنظافة . وقد أصبح للحمامات الآن قوة سحرية تحفظنا من قوى الشر التى تلبس ثياب الجراثيم ، ونحن نتنبأ بأن هذا الدين الطبى الجديد سيقضى على التقاليد المسيحية الخاصة بالجسم وإهماله. ومنذ وصلنا إلى فائدة ضوء الشمس للأجسام أصبح الإكثار من الملابس جريمة طبية . وأصبحت قلة الحياء فضيلة . وقد يصبح العرى فى القريب أمرا شائعا ، وتكون هذه آخر مرحلة في جعل الملابس مريحة . وقد وصل

إليها الآن كثير من الرجال والنساء .

لقد كتب فلتشر Fletcher يصف زيارة جلادستون لأكسفورد ، قبل موته بقليل فقال: إنه لم يرض عن ملابس الطلبة هناك لرخصها ، ولتبذلهم فيها. وقال: إن ملابس الشبان فى أيامه كانت غالية ، يصل الواحد منها إلى مائة جنيه بما عليه من جواهر . وكان لكل شاب سروال مكوى يحافظ عليه . وكانت زيارة جلادستون أيام أن كان الطلبة لا يزالون يلبسون « ياقات عالية منشاة، وقبعات مقواة » ولا يمكن أن نتخيل ما كان يقوله لو رآهم الآن بقمصانهم المفتوحة ، وسراويلهم الواسعة . والآن قد وصل التحلل من القيود إلى درجة لم يصل إليها أحد من قبل . فالرجل الآن لا يتقيد بالرسميات فى اللباس إلا فى القليل النادر .

أما العقبات فى سبيل راحة النساء فقد كانت سياسية وخلقية . وكان عليهن أن يرعين التقاليد الاجتماعية والدينية معا . وبقين يرزحن تحت قيود التقاليد زمنا طويلا باسم الحياء بعد تحلل الرجال منها، ولما جاءت الحرب وقمن بنصيبهن فيها وجدن طبيعة العمل والراحة تقضى بالخلاص من قيود الحيـاء القديم . فضحين بالحياء وبانت لهن فضائل هذه التضحية فبقين بعيدات عن هذه القيود، لتستفيد جسومهن وتزيد راحتهن، وطراز الملابس فى الحديث من أكثر الطرز راحة لهن ، حتى من ملابس الإغريق .

الراحة غاية فى ذاتها :

أصبح طلب الراحة لذاتها الآن سببا من أسبـاب انتشارها ، وقد أصبحت ممكنة بسبب التغيرات التى طرأت على فلسفة الحياة وهى الآن « مودة » جديدة ، وعادة طبيعية ومثال أعلى يقصد إليه الناس لذاته ، وكلما زادت الراحة فى هذه الحياة زادت قيمتها . وألم التعب الآن كبير جدا للذين عرفوا طعم الراحة . ومع ذلك « فالمودة » التى تقلل من أهمية الراحة الآن « مودة » شائعة قوية . والرغبات المـادية الكثيرة الآن مرتبطة بوسائل

الراحة . وصناعة الأثاث ، وآلات التدفئة . والأعمال الصحية فى المنازل لا تساعد على موت حب الناس للراحة . فهناك على العكس من ذلك — فى وسائل الإعلان الحديثة عن هذه الوسائل ما يساعد على نمو هذا الحب وازدهاره .

وقد ذكرت الآن الأسباب الروحية التى أدت إلى الراحة فى العصور الحديثة باختصار . ولأقل كلمات قليلة عن آثارها :

لا يمكن للإنسان أن يأخذ من غير أن يعطى ، وإن الوصول إلى الراحة يقابله خسارة أشياء أخرى قيمة ، فالذى يبنى بيتا الآن يهتم كل الاهتمام بوسائل الراحة فى مسكنه المستقبل ، وينفق عليه مالا كثيرا فى آلات التدفئة ، والحمامات ، والفراش الناعم الوثير وما أشبه ذلك ، وبذلك يصبح البيت فى نظره تاما .

والذى ينفقه صاحب البيت الآن على بيته فى الأدوات الصحية والتدفئة بأنابيب الماء الساخن ، كان ينفق فى الأيام الخالية على سلالم الرخام ، ووجه المنزل،والصور الطبيعية على جدر الحجرات،وتذهيب هذه الجدر ، وعلى الصور والتماثيل ، وكان البابوات فى القرن السادس عشر يعيشون فى شقاء وتعب منزلى،لا يسمح لنفسه به الآن مدير مصرف صغير .

ولكن هؤلاء البابوات كانوا يتمتعون بالصور الطبيعية على الجدر يرسمها رفاييل ، وصوامع يبينها سيستينى (Sistine) . ولكن أنرثى لهم لخلو الفاتيكان من الحمامات والأنابيب الساخنة الماء ، وكراسى حجرات التدخين؟ أنى أميل إلى القول بأننا الآن نبالغ فى حب الراحة ، ولقد عشت فى بيوت كالتى عاش فيها آبائى من السكسونيين . وكنت سعيدا مع خلوها من كل وسائل الراحة التى يراها قومى الآن ضرورية ، والشرقيون وسكان جنوب أوربا يعيشون سعداء فى بيوت لا تعرف وسائل الراحة التى نتمتع بها ، ولا

يمنع سعادتهم خلو بيوتهم من هذه الوسائل .

إنى رجل قديم وأعتقد فى القيم وعديم القيمة من الأشياء ، ولا أستطيع أن أرى للتقدم المادى فضلا إلا إذا خدم الفكر . وأحب الاختراع الذى يقلل العمل ؛ لأنه يقتصد الوقت والقوة فتستخدمهما فى العمـــل العقلى ، (ولكن هناك من الناس من يكره العمل العقلى ، ويفكر فى اختراع الوسائل للاقتصاد فى العمـل العقلى ، كما يفكر فى اختراع « ماكينات الخياطة » وفى الآلات الأتوماتيكية لغسل الأوانى) وأحب وسائل الانتقال السريعة لأنها توسع الأفق الذى يحد العقل .

وهناك مبررات للراحة عندى ، فهى تسهل الحياة العقلية . والتعب يعوقها . ومن الصعب أن أفكر وأنا أحس ببرد أو صداع . والراحة عندى وسيلة لغاية ، ولكن العصر الحديث يعتبرها غاية فى ذاتها وخيرا مطلقا ؟

عبد الرزاق حميده

رحـــــلة طائر

— ١ —

للشاعر الأستاذ فايد العمروسي

«ملحمة شعرية فى عشرين نشيدا ، ترمز إلى رحلة خيالية ، قام بها طائر حين أشرقت شمسه ، سابحا فى فضاء الوجود يتحسس فى دياجير رحلته جوانب شتى من جوانب الحياة، متطلعا إلى الطبيعة الحية فى كثير من ألوانها وضروبها ، والطائر فى رحلته ، من شمسه إلى فجره ، شاعر فى حياته النفسية ، وأحاسيسه الوجدانية ، فى عهد من عهوده ، مبدؤه هذه الشمس ، ونهايته ذلك الظلام»

فى الصباح

راحَ يسعى بجدِّهِ المُتوالى ... دائمَ الكدّ ، مستمرَّ النّضال

يبتغِى العيشَ فى جهاد عنيف ... بين روض الرُّبا وقفر الرمال

كلُّ حيٍّ يدبّ فوق ثراها ... ويُلاقى صعابَها لايبالى

تسأمُ الأرضُ من خُطاهُ وتَسلو ... وهو فيها متيَّمٌ ، غيرُ سال

شأن كُلٍّ ، يرى الحياةَ جهادًا ... فيُضحِّى لحبّها كلَّ غال

٭٭٭

طالَعَ الشمسَ فى بكورٍ وأَمْضى ... شُعلةَ الضوء طائفا كالخيال

يهبط السهلَ بينَ حينٍ ، وآنًا ... يعتلِى الجو ضارباً فى التِّلال

يلقط الحبَّ من ثراهُ ويجرى   وهو قاسٍ على الثّرى فى النزال
ويرودُ الأزهار ، يحسُو لماها   فيروّى صداه عَذبُ الزّلال

٭٭٭

ويجوب البحارَ فوقَ مياه   لامعات كلؤْلؤ سَلْسال
وهو فى ذلك الفضاء طليقٌ   يرسل الصدح بين ريح الشمال
بين سرب الطيور وهْيَ شواد   فى فسيح الأرجاء مرحى سوالى
يَعتلينَ الغُصونَ آناً ، وآناً   يفترشْن الكروم تحت الظلال
تجتنى كلَّ ماتحبّ وتهوَى   لاتنى عن محرِّم أو حلال
ليس تدرى من الزّمان اعتسافاً   أو تُبالى بحادثات الليالى
كلّ شيء ترومه مُسْتَباحٌ   كان بالأرض، أو بمتن الجبال
ذاك سِرّ وحكمةٌ تتجلّى   تخلق الطيرَ بين وادى الجمال

٭٭٭

فى الغـــروب

وَمَضتْ جذوةُ النهار سراعاً   وبدَا الأفُق فى ثياب الحياء
بينما الشمس قد توارت يئوسا   كَمحبّ منى بحـــرّ الجفاء
فَلَّ منها الشعاع يخبو رويداً   كسقيمٍ أضناه مرُّ الدواء
وتَمَشّى الشعاع فوق الرّوابى   وتَرَامى على ضفاف الماء
وسَرَى فوق مَتْنه يتهادى   فى دلال وروعةٍ وبهاء
وَهَفَا بالرياض شدوٌ وديعٌ   ناعمُ اللحنِ في رقيقِ الغناء

نغماتٌ كخطرة الشعر تسمو   في خلود بمرتقى العلياء
بين هذا الرواء،والشمس كالقا   م لب الجريح،المريق حرَّ الدماء
راح كلُّ الأنام يسعون جهدا   حيث يرجون راحة من عناء
وعناءُ النهار جهدٌ أليمٍ   يزحمُ النفس من ضروب الشقاء
فجموع الطيور في الجو تسرى   لترودَ الوكورَ قبل المساء
وعيون الحياة أسبلت الجفـ   ـنَ، وأبدت طلائعَ الإصغاء
كل خلق سرى لمأوى حواهُ   في هدوء وغبطة وهناء
ومضى كل سائرٍ، ثم آوى   كل حيّ يحثّ في الانزواء
فترى كل كائنٍ قد توارى   في حماه، وجدَّ في الاختفاء

في الليـــل

طبّق الأفقَ هجمةٌ من ظلام   جعلتهُ مغبّر الأرجاء
وتراءى الظلامُ يبدو كقبرٍ   أشعث الوجه قاتم الأنحاء
في سكون بخفقه رهباتٌ   تُنذر الكون بالبلَى والفناء

٭ ٭ ٭

رفرف الطائرُ الغريب جناحيـ   ـه وجدَّ المسيرَ في إبطاء
هاله البعدُ عن أليفٍ حنون   وصغارٍ لهنّ حسنُ الرواء
فانبرى يقطع الطريق بلهفٍ   يبتغي العشّ تحت ظلّ الرجاء
في فضاءٍ بجوفه خفقاتٌ   تُشعل البرق في أديم السماء
وخلاءٍ مفــرّقٍ مترامٍ   تُصفر الريحُ فيه بالأنواء

وظلام يجنّ فيه ظلامًا حيّر الطيرَ فى جحيم البلاء

٭ ٭ ٭

وسرى فى ظلامه ينهبُ الجوّ ويمضى كالسّهم فى الظلمات
ليس يدرى لعُشّه كان يسرى أم لحتف مُسَدَّد الطعنات
كلّما حطَّ فوق نجد رفيع يتردَّى بباطن الحفرات
أو رأى التلَّ يَعْتَليه صعودا صدمته شدائدُ العثرات
تتراءى له قبابُ الروابى كأعالى الأشجار فى الجنات
فيجدّ السُّرى إليها فَيَلْقَا م هَا صُخُوراً من الحَصى باليات

فى الروض

وإذا حَطَّ بين أشجار روض يبتغى فيه مكمنا للبَيَات
أقلق الطير فى حمَاها فهبّت فى ضجيج مروّع الصرخات
ظنّت الروض قددهته العوادى وأحاطَت به جيوشُ الطّغاة
فتعالى الصراخُ فى كل عُشّ كصُراخ الأطفال فى الفزعات
ثم هبّت تردّ ذاك المعادى فى نواح كمأتم النائحات
حَزّ وجه الغصون لطمُ جناحٍ بجَنَاحٍ يزيدُ فى الضّربات
بين قرع وضَجّة ونحيب واضطراب بأغْصُن الشجرات
فتخلّى الغريب عن أرض قوم لم يُصادف بها سوى الصدمات
وتخلّى ، وقلبُه فى خُفوق وتولّى يئنُّ فى حسرات

لها بقية ستنشر تباعا فى الاعداد القادمة

فايد العمروسى
المدرس بالناصرية

شـــــاعر

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قام فى الكون مُشرفا وأطلاّ أتراه أتبغى السماء محلا ؟
ماله والنضال فى شُعب الأر ض فقد ضاق بالنضال وملاّ ؟
ماله والصراع فى حلق الأر ض وقتل البرىء ظلما وجهلا ؟
ماله والدماء تُهرقُ كالما ء وتشقى بها البلادُ وتبلى ؟
ماله والخصام يأكل قلب النـ ـاس بالحقد والضغينة أكلا ؟
ماله والقوىُّ يهزأ بالحق ويرمى الضعيف عسفا ونكلا ؟
ماله والحديد والنار أضحت حاكما فيصلا وقولا فصلا ؟
ماله والوعود صارت ضياعا والمواثيق كلها صرن مطلا ؟
ماله والوعيد يرعد فى الأفـ ـق فتهمى السماء سجلا ووَبْلا ؟
ماله والحياة صارت هجيرا لا يرى القلبُ فى حواشيه ظلا ؟
ماله والحياة صارت خداعا لا يرى القلب فى دواعيه نبلا ؟
ماله والحياة صارت يبابا لا ترى العينُ فى مراميه أهلا ؟
ماله والنفوس تفعم كيدا ماله والقلوب تطفح غلا ؟
إنه شاعر يثور على الضـ ـيم ويأبى الحياة خسفا وذلا
إنه شاعر يعز على القـ ـيد ولو كان بالنضار محلى

محمد عبد الغنى حسن

قصة ايرانية :

كـــنز الراعى....

مترجمة عن الانجليزية من كتاب « قصص من كل مكان »

Stories From Everywhere للكاتبة الانجليزية

Rhoda power « رودابور »

كان رجلا فقيراً ، وكان يعيش فى عهود ملوك إيران الأولين على رعى الأغنام...لم يكن منزله كهذه المنازل المألوفة المطروقة ، وإنما هو كهف موحش فى أحد تلال إيران ، يأوى إليه كلما خيم الظلام....!

لم يكن كهؤلاء المقبلين على الدنيا ، الظامئين إلى مُتَـعها ومباهجها ، وإنما كان عازفا عنها على عِلم بها ، يقتصر منها على مايمسك الرمق ، ويحبس صوت الجوع ، ولم يكن له من حُطام هذه الدنيا التى عاش فيها بعيداً عنها ، أكثر من حارس وصديق !

وما ظنك بحارسه...؟أهو كهؤلاء الحراس الذين يجودون بأرواحهم البريئة دفاعا عن متعجرف ظالم كى يسترسل فى جبروته ؟ كلا ، لم يكن واحداً من هؤلاء وإنما هو عصاه ..! عصا الراعى المعدر ، تلك التى يتوكأ عليها ، ويهش بها على غنمه كلما قفل راجعا من المرعى !

وما ظنك بصديقه أيضا . . . . ؟ أهو من طراز أولئك الأصدقاء الذين يشقى المرء بمعرفتهم ، ويتعرَّى بصحبتهم . . . . ؟ لا ، لم يكن من هذا الطراز المألوف وإنما هو — ولا تدهش — « جلد شاة » ! ولم لا يتخذ مثل هذا الرجل من « جلد شاة » صديقا يحرص على عودته وألْـفته؟أوَلا يستدفىء به ويتدثر عند النوم؟ أوَلا يستر بالنهار قميصَـه الخلَـق المهلهل عن أعين الفضوليين

والعابرين من أبناء السبيل . . . . ؟ وكان كما نشأ أو شاء أميا . فما تعلم قط كيف يكتب أو يقرأ ولكنه كان بتجاربه أكثر من معلم : فقد عرف أساليب كل حيوان كاسر يهيم فوق التلال !

تعلم عادات كل حشرة تدب بين بين الأوراق والأعشاب . وأصغى إلى الطيور فألهمته أغانيها المرحة العذبة فرح الحياة ! وراقب السحب والأفلاك ، وتتبع اتجاهات الرياح والأنواء ، حتى أصبح يعرف متى تجود السماء بالمطر اللطيف المرتجى ! لقد كانت الطبيعة أستاذه الملهم ، أستاذه الذى يتردد عليه ويأخذ عنه لباب المعرفة ، ولهذا كان أعرف بأساليب الطبيعة ، وفهم لغتها من أى إيرانى آخر يعيش فى عصره !

كذلك ازداد بصراً بدنيا الرعاة الآخرين وخواطرهم ، فقد اعتاد كلما خرج بقطيعه كل يوم إلى المرعى أن يلتقى فى طريقه بأولئك الرعاة ، فيتحادث معهم ، ويتخذ له منهم تتمة لقطيعه ، يُوليهم مايوليه من رعاية واهتمام . . . . !

* * *

تناقل الناس أخبار ذلك الراعى الشيخ ، وترامت إلى سكان المدن المجاورة قصص شتى عن عقله وفطنته، وسداد رأيه وتجربته ، فطاب لهم أن يروه، واضطربت فى أعماقهم بواعث الارتحال إليه . . . . . وانثالت الوفود عليه ملتمسين الرأى فيما يغشاهم ويستبد بهم من جواذب العين ، وتنازع البقاء !

قال فريق منهم عندما رأى الشيخ فى سمته الوادع الساذج :

ـــ أيها الشيخ المبارك ! أنت يافيلسوف إيران القانع وأعقل مَن فيها ، لقد فزعنا إليك نلتمس المعونة ، فساعدنا برأيك بما ألم بنا من الشدائد . إننا أشقياء بما يقوم بيننا وبين جيراننا من غارات وحروب ! !

وصاح فريق آخر :

ـــ ماذا نفعل . . . . ؟ لقد كنا بالأمس أغنياء ونحن الآن فقراء !!

كيف نستعيد حالتنا الأولى ، وأيامنا السالفة . . . ؟ هل نستطيع . . . . . ؟

وقاطع هذا الفريق فريق ثالث :

— ونحن . . . . ؟ كيف نحارب الطمع فى نفوسنا . . . . ؟ لقد كنا بالأمس فقراء ونحن الآن أغنياء ، والحرص على المال يُشقينا . . . . !

أصغى الراعى إلى ماتضطرب به نفوس كل فريق من ألوان الشكايات وشذوذ الشكايات ، ثم عقب على أسئلتهم بما فض مشاكلهم . وألهمهم اليقين ولا عجب ، فمحبته للأغنام ، رعيته الأليفة ، وتفكيرُه المسترسل فى الناس وأحوالهم . ضمن له صفاء الرأى ، واستقامة الفهم ، وصدق الجواب

ورجع القوم من لدنه راضين مغتبطين . وتفرقوا فى المدائن والقرى يذيعون ماشاهدوا ، ويثنون على هذا الذى ألهمهم الرأى ، وأمدهم بالعون فيما أشكل عليهم ، ويذكرون لأصدقائهم عنه قصصا يتلقفها الرواة وينشرونها ... وهكذا قُدِّر لهذا الراعى أن يشتهر . وأن تستفيض هذه الشهرة وتعم ، حتى تصل إلى مسامع الشاه . . . .

* * *

كان الشاه ملكا عادلا محبوبا . وكان لايألو وسعا فى كل مايعود باليسر والرخاء على شعبه . كان شديد الحذر ، يروى طويلا فى اختيار من يشرفون على أجزاء مملكته من الحكام والولاة ، توخيا للعدل والنزاهة وكان لايسمع عن ذى مواهب حتى يجربه ويستوثق منه ، ثم يُقَرِّبه منه وينتفع بمواهبه . ولما أن رأى القوم يفيضون كثيراً فى أمر ذلك الراعى متحدثين عن مقدرته وكفاءته صمم فيما بينه وبين نفسه على أن يزوره متنكراً ليختبره ، ويتحقق مما سمع عنه ، فربما وجد فيه مواهب تُستغَل لمصلحة البلاد ومنفعة العباد . . .

وذات ليلة استدعى الشاه خادمه الأمين « مصطفى » وقال له :

— لقد عزمتُ على القيام برحلة متنكرا . لن يصحبنى فى هذه الرحلة

أحد . سأخلع ثيابى الحريرية وجواهرى ، وارتدى بعض ملابسك القديمة وعباءتك الرمادية .

صدع الخادم بأمر مولاه . فأسرع يُعد كل شىء ، لقد كان هذا الخادم أثيرا لدى الشاه ، أناله الوفاءُ الجم ، والاخلاص الشديد مكانة يحسده عليها خدم القصر الكثيرون ، وكان له من الحظوة مايجرؤه على الاستفهام لوشاء..!

لكنه فى هذا الشأن لم يسأل ، فطالما رأى سيده يخرج متنكرا فى الليل ، فيغشى مجتمعات المدينة ، ويندس بين طوائف رعيته ، كى يقف على حقيقة ما هم فيه من يسر ورخاء ، أوبؤس وشقاء ..!

واستدعى الشاه خادمه مرة أخرى .

ــ لا تنس أن تُعد كذلك شيئا من الخبز والتمر .

خبزا وتمرا يامولاى . . ؟

نعم فالرحلة ستكون خارج المدينة . وقد تستغرق بضعة أيام .

✡✡✡

أعد الخادم كل شىء . . وخرج الشاه متنكرا يبحث عن الراعى . كان الطريق الذى سلكه يكاد يكون منقطعا ، وحيثما أجال بصره والتفت حوله لا يرى إلا كثبانا من الرمال . وإلا بعض الشجيرات والأعشاب المتناثرة هنا وهناك . لقد كان يُهوّن على نفسه وعثاء الطريق . ومشاق السفر بالتحدث إلى بغله حينا ، ومضغ تمرة أحيانا . وإنه لفى يأس من وجود الراعى إذ تراءى له عن بعد ما يشبه أن يكون سحابة من الغبار مقبلة نحوه ، فسرى الأمل فى نفسه من جديد وقال :

ــ آه ...ماذا أرى ؟ لاشك أنها قافلةمن التجار وجهتها المدينة!سأسألهم فربما رأوا فى طريقهم هذا الراعى الذى اشتهرأمرُه بين الناس !

استحث الشاه دابته ، واتجه نحو السحابة . وعندما صار منها قاب قوسين أو أدنى لم يجدها ــ كما قدر ــ قافلة من التجار . وإنما رأى أمامه قطيعا من

الأغنام يرعى على سفوح التلال . لم تألف الأغنام منظرا كهذا المنظر الجديد عليها فأجفلت تهرب من هذا الذى يمشى بدابته بينها ، أما هو فقد سرّته هذه المفاجأة فقال :

آها ! قطيع من الأغنام الوادعة ؟ لا بد أن راعيَها طيب ! ترى أين هو؟ أين راعيك أيتها الأغنام . . ؟

ها أنا ذاك ! ثم وقف رجل كان جالسا أمام كهف ومشى نحو الشاه حتى إذا صار أمامه ، قال له :

ـــ السلام عليك ياسيدى . أتسمح فأقدم لك قطعة من الجبن تستعين بها على خبزك . . ؟ ليس لدى نبيذ ، ولكن الماء الذى أحمله فى قربتى عذب

حل الشيخ قربة الماء المدلاة إلى جانبه ، ثم خلع ثوبه الخلق ـــ جلد الشاة ـــ وفرشه على الأرض بعناية تامة ، كأنما يفرش ثوبا من الحرير الموَشَّى . . ! ثم رفع رأسه وقال :

استرح ياسيدى إنى أرى، من التراب المتراكم على ملابسك وفوق دابتك أنك قادم من جهة نائية ، وسفر طويل !

* * *

جلس الشاه على الثوب . . ثم بدأ يتكلم مع الراعى ، ويصغى إلى إجاباته باهتمام شديد ! وقد أدهشه ما كان يبدو على كلام الراعى من التعقل والفطنة والتجربة . . كما أعجبه إيجاز كلمات الرجل وصراحتها . . ! لقد شعر الشاه بميل إلى الاسترسال فى الحديث مع هذا الشيخ ، ولكن شوقه الملح إلى البحث عن الراعى الشهير ، والوصول إليه جعله ينهض من مكانه ، ويقول لهذا الشيخ مبتسما .

ـــ شكرا لك على كرمك ولطفك . هل تأذن لى فى استئناف السير ؟ ! إنى مسافر بائس والطريق لا تزال أمامى طويلة !

انحنى الراعى قليلا ، ثم قال .

– سيدى ! لست مسافرا بائسا ! إنك تلبس ثيابك الممزقة كملك عظيم ، وكلامك كلام من اعتاد أن يكون مطاعا! وعيناك تشفان عن التفكير والصراحة كعينى من اعتاد أن يأمر . . ! أعتقد أنك ملك ! ألست خادمك الراعى يتحدث إلى عاهله الشاه . . ؟

أدرك الشاه عندئذ أنه هو الراعى فأمسك بيده وقال له :

إن الشاه يتكلم إلى أعقل رعيته وأحكمهم . إنه يتكلم إلى من سيكون واليا على كل قرية مرّ بها هذا القطيع . .

***

أصبح الراعى واليا من قِبَل الشاه على جميع القرى المحيطة به واحتفل السكان بولايته عليهم احتفالا شاملا ، ولم يكن غريبا أن يستقبلوه بمظاهر الحفاوة الكبرى .

فقد كانوا متشوقين إلى وال يسوى بينهم بالعدل ويُديل للضعيف من القوى ، ويوطد دعائم الأمن الذى طالما تمنّوْه وحنوا إليه . . ومن أقدر على الاضطلاع بهذا العبء مِن هذا الذى كانوا يلوذون برأيه فى أيام المحن والضيق . . ؟

ترك الوالى الجديد كهفه القديم ، كما ترك رعى الأغنام ، واتخذ له بيتا أبيض يملؤه الخدم وتحف به حديقة غناء ! واستبدل بملابسه الأولى ثيابا أخرى من الديباج تليق بمنصبه الجديد . واقتنى من الجمال والخيل والبغال ما ينقل متاعه من مكان إلى مكان كلما أراد الارتحال .

أحب السكان هذا الوالى حبا جما ، ووثقوا به ثقة تامة ، واتخذوا منه أبا كبيرا يسهر على مصالحهم ، ويتحرى أوجه الخير والمنفعة لهم ، إلا أنه اعتاد منذ ولايته أن يحمل على ظهر جمل صندوقا شُدَّ عليه بالحديد والأقفال . لقد كان يحمله معه فى كل مكان . !

لم يكن هذا الصندوق شيئا فى نظر الناس ، ولكنه صار شيئا هائلا عند ما وجدوا الوالى يهتم به ويحرص عليه ! لقد بدءوا يتساءلون ثم يتهامسون،ثم يخترعون الأقاصيص حول الصندوق ، ثم يسيئون الظنون بالوالى ...! ثم يخرجون من التساؤل والتهامس والاختراع والظن إلى تجريح الوالى ووصمه بأشنع التهم والأباطيل ..!

فمن قائل:

— لماذا يهتم بهذا الصندوق هكذا ؟ أيكون فى داخله كنز ...؟

ومن متهكم :

— ربما يحفظ فيه الضرائب التى يجبيها منا ...!

ومن غاضب ثائر :

— ماذا يظن هذا الرجل ...؟ أيظن أننا ندفع الضرائب له لا للشاه ؟ أيريد أن يُثرىَ على حسابنا ...؟ إن هذا الرجل غير أمين ..!

أخذ الشك يلح على الناس شيئا فشيئا ، وبدأت مراجل الغيظ فى الصدور تفور ممن أفسد المال قلبه ، ودفعه إلى الجشع والخيانة ..! لم يكن هذا الشعور شعور فرد أو جماعة فيهون ، وإنما كان شعورا إجماعيا يشترك فيه الرجال والنساء . والكبار والصغار ، فإذا زمجرت النساء !

— إنه ينهب الفقراء ..!

— صاح الرجال

— بل يسرق خزينة الشاه .. !

وتدخل الأطفال :

— إنه يخشى أن يفتح الصندوقَ إنسان ...! وإلا فلماذا يحمله معه فى كل مكان ..... ؟

* * *

يقول المثل الايرانى : « كالضوء تنتشر الأباطيل ، وكالصدق يتقبلها الناس » .. وهكذا انتشرت قصة الوالى الخائن حتى وصلت إلى القصر ..! ثم أوغلت فى الانتشار حتى انتهت الى الشاه .. لم يشأ أن يصدق أذنيه بادىء بدء ...! لم يشأ أن يؤمن بأن الرجل الذى اختبره بنفسه ، والذى كان مضرب الأمثال فى القناعة والزهد يخلق منه بريقُ الذهب ورنينه رجلا شرها يستأثر بأموال الأمة ..! ولـكنّ تواترالشائعات وتشابهها جعله يسىءظنا به ، ويعتقد أن كل ما امتدت اليه يد الوالى الخائن ، لا بد أن يكون فى هذا الصندوق الغريب!

روّى الشاه طويلا فى الأمر ، وطافت بذهنه صور شتى للانتقام والتمثيل بهذا الوالى الخادع .. ! أيعزله ويحرمه جاه المنصب ؟ أيزج به فى أعماق السجن وغياهبه جزاء على سوء َفعلته ؟ أم يقتله ويمثِّل به كى يكون عظةوعبرة لمن شاء من الولاة أن ينهج منهجه ، ويختط سبيله ..؟

ولـكن ألا يحتمل أنه برىء ؟ ألا يجوز أنه مظلوم ، وأن خصومه وحاسديه همالذين يكيدون له ، انتقاما لحقدهموحسدهم ، وشفاءلغيظ صدورهم؟

مهما يكن من أمر ، فليس من السياسة أو العدل أن أعاقبه قبل مواجهته

هكذا قال الشاه ثماستدعى خادمه « مصطفى » وقال له

— مصطفى . سأقوم برحلة أزور فيها إحدى ولايات مملـكتى ، فأحضر أفخر ثيابى ، وأرسل فى طلب جيادى وحاشيتى وعبيدى .

صدع الخادم بالأمر .. وخرج الشاه فى هذا الموكب متجها إلى البيت الأبيض مسكن الوالى الخائن ، ومقر حكمه . . ولم يكد يبتعد بموكبه عن المدينة وأسوارها مسيرة ساعات ، حتى أبصر عن بُـعد سحابة من الغبار ، سحابة لم َتلُـح له حتى بدا التأثر على وجهه ، وظهر الحزن فى عينيه .. ! لقد تذكر الرحلة الأولى ، تذكر سحابة الغبار التى تكشفت له عن قطيع من الأغنام ، وعن راع طيب يجلس فى مدخل كهف بعيداً عن ضجة الحياة وأضوائها

كانت السحابة فى هذه الرحلة كبيرة جدا ، وعند ما انتهى الشاه إليها لم يجدها غير الوالى وخدمه ، خرجوا راكبين لمقابلة عاهلهم العظيم ! لقد كان الوالى راكبا على حصان أبيض ، وكان بجانبه جمل يحمل صندوقا كبيرا شُدَّ عليه بالحديد والاقفال .. ! والغريب أن الجمل كان يخفره رجال أشداء مسلحون ! ، ويسوقه رجل يحمل فى يده اليمنى رمحا طويلا ، وفى يده اليسرى خطام قرمزى يقوده منه ..! وترجل الوالى أمام الشاه ، وانحنى الى الارض محييا ، ولكن الشاه رمقه بعين تتقد كالجمر ، ثم سأله فى احتقار وازدراء :

ـــ ماهذه القصص التى سمعتها عنك .. ؟ وأين هى الأموال التى سرقتها وأخذتها ؟ أجب ياسارق الفقراء .. !!

ـــ مولاى ! معاذ الله أن يسرق مثلى أو يُخفى أى شىء !

ـــ لِتفتحْ إذن صندوق كنزك هذا ! ولتُرِنى كل شىء بداخله .. !

***

أناخ الوالى الجمل على الأرض ، ثم انحنى وفتح الصندوق بمفتاح كان معلقا فى حبل حريرى حول وسطه ، فحدق الأمراء والقضاة فيه .. حتى العبيد تركوا أمكنتهم واندفعوا نحو الصندوق ينظرون ..! أما الشاه فبقى فى مكانه جامدا ،فقدأدهشهأنه لم يجد فى الصندوق ما كان يتوقع .. ! لم يُخرج الوالىمنه ذهباوجواهروانما أخرج « جلد شاة » أراه للملك ومنحوله .. ثم أخذ ببطء ينزع ملابسه الجميلة ويقول للشاه :

ـــ أتذكر هذا الجلد ؟ إنه هو نفسه الجلد الذى جلست عليه يومشرفتنى بزيارتك الأولى . ! هذا هو كنزى يامولاى ! هو أحسن صديق عرفت فى الحياة . لقد حرصت عليه ، واصطحبته معى فى كل مكان ، لذكرنى بايامى الأولى .. بالأيام التى كنت أهيم فيها على وجهى بين التلال كراع فقير ..

لقد خشيت يامولاى من الحظ الباسم .. خشيت أن تطغى السعادة الطارئة

عليّ فأنسى ما كنت عليه أولا ، وأنى ما كنت أملك شيئا أكثر من « جلد شاة » كما خشيت على نفسى شر الطمع والغرور ، وأردت أن أتذكر أنه يجب أن أظل متواضعا ..

وحرصت عليه فوق ذلك يامولاى مخافة مثل هذا اليوم ! مخافة ان يأتى يوم يغضب عليّ فيه مولاى فيطردنى ويردنى إلى حالتى الأولى .. إلى دنيا الشظف والهيمان فى بطون الوادى .. ! فيكون هذا الصديق القديم عونا لى كما كان ..

لم يستطع الشاه أن يغالب انفعاله عندما سمع هذه الكلمات الهادئة المؤثرة لقد أحس الندم فى أعماقه عما بدر منه لهذا الشيخ المجرب ، وشكر الله على أنه لم يتسرع بعقابه متأثرا بالأكاذيب التى لاكها الناس حتى أوشكت أن تؤثر عليه .. ! وقد شاء أن يُشَرِّفَ هذا الوالى الممتاز ، ويعلن إعجابه . فأمسك بيده وقبّله وقال له :

— أيها الرجل العاقل ! أنت ياأعقل رجل بين أفراد رعيتى! ستكون بعد اليوم أكبر رجل فى مملكتى . . . . !

***

وهكذا شهدت إيران راعيا يرفعه عقله وتسمو به عفة نفسه إلى أكبر مناصب الدولة . . . . . . ومع ماأحاط به من مظاهر العظمة ظل متواضعا ، محافظا حتى الموت على « جلد الشاة » ... على هذا الذى كان أوفى أصدقائه وسِرّ سعادته فى الحياة . . . . . !

عبد العزيز عتيق
مدرسة محمد على الملكية للبنات

١ – الأدباء

للأستاذ عطية الشيخ

تختلف عقول الناس كاختلاف وجوههم ، فكما لا يتشابه وجهان تشابها تاما كذلك لا يتشابه عقلان ، غير أن صفات عامة تشترك فيها عقول طائفة من الناس لا يحدون بجنس ولا زمان ، فيكونون جنسا عقليا واحدا، ويسميهم الناس باسم عام يشملهم: كالأدباء، والفلاسفة، والعلماء، والرجعيين، والمجددين . . . وسنتكلم عن الطبيعة العقلية العامة لكل طائفة من هؤلاء في مقالات متتابعة إن شاء الله ، ومقال اليوم خاص بالكلام عن عقلية الأدباء أو التكوين النفسى للأديب أو الشاعر .

* * *

ونريد بالأديب هنا منشىء الكلام الجميل أو حائك الكلام الرائع ، فنحن نضيق معناها ونقصره على الناحية الإيجابية للأديب ، وهذا اللفظ يشمل الشاعر والناثر الفنى ، إذ لا فرق فى الحقيقة بين إنتاجهما إلا فى الوزن والقافية ، ومرادنا بروعة الكلام وجماله شعرا كان أم نثرا قدرة الأديب على التعبير ، وهى المقدرة الفنية على نقل القارىء إلى جو القائل ، وبقدر هذه المشاركة العقلية بين القائل والقارىء يختلف التعبير قوة وضعفا :

١ ـ تمتاز عقلية الأديب بقوة المظاهر النفسية الثلاثة : الوجدان، والفكر، والإرادة ، وقد يبدو هذا الرأى غريبا ، إذ المعروف أن الشعراء يمتازون بقوة الوجدان فقط ، والذى حدا الناس إلى هذا الظن أن الشعراء يعتمدون

فى التأثير والتأثر على الناحية الوجدانية ، ولكن العواطف العالية التى يمثلها الشعراء لا يمكن أن تتكون إلا بعد فكر عميق ونظر دقيق ، والعاطفة عند غير الشعراء نجدها عمياء ، خرساء وأما عندهم فهى مميزة معللة بنور العقل والفكر. فروعة المقابر ، ووحشة الليل،وحب الوطن ، والشهامة ، والحب كلها أشياء مدركة عند الشعراء وغيرهم ولكنها أوضح منهجا وأدق تميزا عند الشعراء — قدمنا أن الشاعر والناثر الفنى بمعنى — ولذلك تراهم يستطيعون توضيحها لنا بعد إبهامها ،وهذا هو سر حبنا للأدب ، فالشاعر يحس إحساس الناس ثم هو بقوة فكره وتذكره وخياله يصل الى العلل والأسباب ، ويفرق بين القشور والألباب ، فيبين للناس الأسرار التى خفيت عنهم ، ويعبر لهم عما لم يستطيعوا معرفة كنهه ، فهو كالطبيب الذى يشخص الداء ويقدر وظائف الأعضاء ويفرق بين العلة والمعلول،أو كالمهندس الذى يجيد التقسيم والتفصيل ويقدر العرض والطول ، ويتصور الصغير كبيرا حتى يقسمه ، والكبير صغيرا حتى يدركه ، ولا تنس أن الاستعارة والتشبيه محتاجان إلى القياس وهو من أدق عمليات الفكر ، ولا بد للأديب من قوة الحفظ والذكر،لأنه يلتقط كل ما يحس به ويحفظه بدقة ، ومن المعلوم أن توضيح الفكرة للسامع يستلزم وضوحها وفهمها فى نفس القائل.والأديب يعبر لنا عما يحس به صدرنا ، ولا ينطلق لساننا فهو من هذه الناحية أشد منا فهما وأقوى فكرا ، وإذا بحثنا فى الواقع وجدنا أن الأدباء أزكى الطبقات فى جميع العصور والأزمان . وأما قوة إرادة الأديب فتظهر فى سلطته على نفسه وحواسه ، وقوته على الإيحاء إلى غيره والتسلط على نفسه فهو من هذه الناحية كالمنوم المغناطيسى ولكنه بشكل مصغر ، فإذا كان قائد الجيش قوى الإرادة على جنوده فالأديب قويها على فكره وأفكار الناس .

ولعل فى هذا كفاية للرد على من يزعمون ضعف تفكير الأدباء وإرادتهم.

* * *

٢ — تتجه عقلية الأديب إلى الأشياء العامة التى تهم الناس جميعا ووقع فيها الناس جميعا أو يدركها الناس جميعا حتى ولو إدراكا كليا غامضا وهذا هو السر فى أن الأدب فن من فنون الجمال ، لأن جميع الفنون الجميلة عامة الشكل والموضوع فأحبها الناس ، وبقدر سهولة إدراكها يكون الاعتراف بها فنا جميلا ، ومن هنا كان أول فنون الجمال شيوعا الموسيقا وآخرها الأدب لكثرة الفاهمين للأول وقلتهم للآخير ، وعلى عكس ذلك قدرة الفن على التأثير فمع قلة المقدرين لجمال الادب تجده أشد تأثيرا فيهم من الموسيقى فى الجماهير ، إذ الشعور بجمال الأدب نوع من الأدب ولا يقدر الجمال الأدبى إلا مزاج أديب ، وهو مؤثر فى الفكر قبل الحواس فهو من حيث الكيف أعلى فنون الجمال ، ولذلك يقول العلماء إن الفكر كلما تقدم كان سروره بالمعنويات أشد . فالعبقرى يسر بتخيل الوردة أكثر مما يسر برؤيتها ، ومن هنا كان تأثير الأدب فى فاهمه أكثر من تأثير الحقيقة التى يحكيها الأدب ، فأنت تسر بوصف البستان من أديب ماهر أكثر مما تسر من البستان نفسه .

٣ — عقلية الأديب دائما تتصور نفسها قطعة من جسم كلى هو الكون وما فيه فهى مترنمة مع كل شىء فى الوجود ، أو هى الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه ، تناجى كل شىء ويناجيها كل شىء إذا ملت الناس انجذبت نحو الطبيعة وإذا سئمت الطبيعة الأرضية سرت إلى الملأ الأعلى وما فيه ، وإن أبكاها شىء راحت تستبكى جميع النفوس ، وإن طربت لمغنى طارت تغنى به ليشاركها فى اللذة كل الوجود .

ومن هنا كثرت شكايات الأدباء من الناس والزمان والمكان ، لأنهم

مهتمون مخلصون لكل شىء فهم يودون أن يهتم بهم ويخلص لهم كل شىء ، ولكن ليس كل شىء أديبا !

٤ — مواهب الأديب طبيعة فطرية فلا يمكن خلق أديب بالكسب دون الفطرة ، وليست هذه الفطرة مولودة دائمة ، فقد يحدث للمفطور على الأدب ما يذهب بهذه الملكة وقد يجد على النفس غير الشاعرة شىء يجعلها شاعرة ،ومن هنا كان الأديب مدفوعا للأدب ، لايحمل نفسه عليه بل تحمله نفسه إليه حملا ، سأل تلميذ أستاذه فى الأدب أأصلح أديبا ؟ فقال له إذا رأيت نفسك حين تريد الكتابة لاتستطيع أى قوة أن تمنعك عنها فاعلم أنك أديب . ولذلك تعرض كثير من الأدباء للايذاء بسبب منهجهم ولم يكفوا إذ المساكين ليسوا مخيرين ، والواقع أن التنفيس عن هذا الدافع هو كل أجر الأديب ، فلن يستفيد من تخليد اسمه شيئا ، ولن يقبض من إعجاب الناس ثمنا ، ولن يزداد من مجهوده معرفة لأنه لايقول إلا مايعلم ، فهو مدفوع بقوة الفن للتنفيس عن رغبة جامحة .

٥ — لابد للأديب من أن يكون متعمقا فى اللغة التى يعبر بها ، واللغة ألفاظ تعبر عن محسات الأمة ومعانيها ، فهى مجمع التقاليد ووعاء المعارف وخزانة الأدب والأمل ، فعنى القوة فى لغة قوم الانسجام معهم والتجانس بجنسيتهم ، والامتزاج الروحى بهم ، ولذلك تجد الأمم الناهضة تعنى بنشر لغاتها ، ولقد فطن المستعمرون لهذه الناحية ، فأهم مايتجه إليه همهم فى قطر مفتوح نشر لغتهم ليجنسوا القوم بجنسيتهم وينسوهم تقاليدهم ، ألم ترأن تعرب البلاد المفتوحة للمسلمين كان على قدرمعرفتها بلغة العرب ؟ ولذلك كان الأدباء مظهرا لحضارة أممهم وممثلا صادقا لأحوال قومهم المعيشية والاجتماعية ، ومصورا دقيقا لأحاسيسهم وماضيهم وحاضرهم وآمالهم ، لأن الأديب نموذج مصغر لأمته وبيئته ، ألا ترى أنهم يدرسون بيئة الأديب ليفهموا أقواله وميوله .

ولقد نشأ عن تأثر الأدب بالبيئة أن الآداب قديما كانت خاصة بأممها ، لايهتم بها غيرها لأنه لايدرك سر جمالها ، بخلاف حقائق العلوم ، فإنها كانت مشاعة بين جميع الأمم ، فالعرب الذين ترجموا علوم الأمم لم يهتموا بنقل آداب اللغات الأخرى ، ولم يرقهم شعر هومير الذى يقدسه اليونان والغرب ، وأما الآن فقد تبدلت الأحوال وأصبحت الدنيا كلها ممترجة ، والكرة الأرضية الآن أكثر اتصالا بعضها ببعض من أجزاء مملكة واحدة فى الزمن القديم ، والقطر الواحد يحوى جميع الأجناس ويعامل جميع الناس ، فامتزج الأفراد واختلطوا وعمت الأرض ثقافة واحدة فأصبحنا نفكر تفكيرا واحدا، وتشابهت نظم المعيشة ، واتحدت المثل العليا فى جميع بقاع الأرض فأصبح الأدب الآن عالميا ، ولا فرق فى منهج الأدب العام بين شاعر الصين وأديب أمريكا فاستساغ الناس فى هذا العصر ترجمة الآداب والتمتع بثمرات الأقلام ، كائنا من كان الكاتب الأصلى ، والرائد العام لآداب الأمم هو الأدب الغربى ، ومثل هذا ولكن بشكل مصغر حدث إبان اتساع النفوذ العربى . فان آداب العرب وأشعارهم اكتسحت آداب الأمم المغلوبة وما جاورها فقلدوا شعر العرب فى فنونه وأغراضه وأوزانه وقوافيه (راجع شكوى الفارو فى إسبانيا ونشوء الشعر القومى فى فرنسا)

٦ — عقل الاديب كالحياة لايهتم بالمنطق ولا ينصاع لقانون فكرى عام فكل همه عند التعبير حمل القارىء على أن يشاركه فى وجدانه وينتقل إلى عالمه ولذلك تجدنا عند تقدير الأدب والأديب لاننظر إلى صدق المعانى أو صحة الافكار أو شرف الأغراض بل نقدره على قدرته على التعبير (سبق فى أول المقال تفسيره) فهناك بعض الكتب العلمية موضوعا . قامت البراهين على خطأ كثير مما فيها ولكنها مع ذلك لاتزال حافظة لمركزها الأدبى العالى ككتاب أصل الأنواع لداروين فى الأدب الإنكليزى ، ومقدمة ابن خلدون فى الأدب العربى وكثير من كتب الجغرافيا والتاريخ القديمة ، ولهذا لايبلى الأدب مهما تطاول عليه الزمن ، ولأن قوة التعبير هى أهم خصائص الأسلوب الأدبى

ترانا نعتبر كثيرا من كتب العلوم كتبا أدبية . إذا ظهرت براعة المؤلف فى قوة تعبيره فكتاب تاريخ التربية لمصطفى أمين ورحلة ابن بطوطة وكتب أحمد أمين وما ماثلها نعتبرها كتب أدب مع أنها ألفت لأغراض علميـة بحتة . ومقالات العقاد ودياب وهيكل فى السياسة اعتـبرنا ها أدبا لقوة تعبيرها كذلك .

٧ – حواس الأديب مرهفة ، وعقله حريص على الاستقصاء والحفظ فأصبح كالمخزن المزدحم بالسلع وتكاثرت فى ذهنه الألفاظ وتجاورت فاختلطت ونشأ بينها أنساب وقرابات وتلوث كل منها بما جاوره فأصبح للألفاظ عنـده معانى فرعية بها يمتاز لفظ عن لفظ وأصبحت تراكيبه كأنها مصبوبة صبا لامؤلفة من كلمات مفردة فأسلوبه كالنهر المتصل لا كالقطرات المتباعدة ، وأنت تستطيع أن تميز الأسلوب الأدبى بسهولة إذا نظرت للالفاظ فوجدتها فيه مكتسبة جلالا وأوسع معنى وأكثر اهتزازا وأروع جوارا . وكذلك أصبح للمعنى عنده ألفاظ أكثر مما وضعت له يسميها العلماء تارة مجازاوطورا كناية وأخرى تشبيها ، ولقوة ربط المعانى وتداعيها عند الأديب واختلاط الألفاظ تجده يعبر عن المسموع بحاسة الذوق فيقول صوت عذب وعن المرئى بالمسموع فيقول لها لفتات موسيقية وهكذا تجد عقليـة الادباء من أسباب تطور الكلمات فى اللغات وانتقالها إلى معان جديدة .

٨ – الحاجز بين الشعور واللاشعور فى عقلية الأديب غير يقظ ، ولعل من أسباب ذلك إجهاده لعقله وحواسه ، واستعداده الفطرى ، فأصبحت أفكاره تثب اليه من وراء الشعور كأنها وحى ، فيسميها تارة إلهاما وأخرى أحلاما ، وهذا ماحدا العرب إلى الظن بأن كل شـاعر شيطانا كما أنه يفسر مانراه من المزاج العصبى عند كثير من الأدباء.

عطيه الشيخ
معلمات القبـة

أىُّ أمٍّ رحيمةٍ فى ثِيابه ؟

نشرت إحدى الصحف نبأ وفاة زميل كريم ، لم أعرفه فى الحياة ، وعرفته من خلاله بعد الوفاة ، فلقد قالت عنه : إنه كان دمث الأخلاق جم الصنائع ، مات والداه متعاقبين ، وخلفا له ذرية ضعافا أربعة أطفال زغب الحواصل ، فرعاهم رعاية الأم الرءوم ، وحاطهم حياطة الأب الرحيم ، ولكن القدر وافاه وهو يأخذ زينته من يوم الجمعة ، فأثار الخبر شجونى ، وأسال شئونى ، فأرسلت ذلك الأنين ، ومتى أجدى بكاء الباكين ؟ ولكنها زفرات تخفف ، وقد كان الفقيد مدرسا بمدرسة دمياط الصناعية .

حمل العبء مضنياً فى شبابه   وبدا الصبر ماثلا فى إهابه
لم يخف عيلة ، ولم يخش ضنكا   بل سعى دائباً بعزمة نابه
لا يهاب الويلات تترى عليه   كل صعب يهون فى تدآبه
يكدح الليل والنهار حثيثا   عزمة الليث فى ابتغاء رغابه
مات عنه أبوه ، ثم تولت   أمه . بعد برهة من مصابه
خلفاه ، والرزء رُزءان : هذا   دون ثان قد عبَّ من أوصابه
خلفاه ، وصبية كلهم زغ   ب ، فما منهم قرين كتابه
هَمُّ كل دُمى بها يتسلى   زاهياً معجباً على أترابه
فإذا ما طوى النهار ظلام   عاد للدار مكثرا من طلابه
فيسليهمُ إلى أن يناموا   أى أم رحيمة فى ثيابه ؟
وإذا الشمس أسفرت قصد المع   هد يحي الآداب فى طلابه
حارب البؤس والشقاء فلم يخ   ضع لبؤس يجد من آرابه

عالما أن بؤسه فيه حزن — لليتامى ، وذاك أقسى عذابه
وإذا رازه السقام فقد أسـ — قم كلا من روحه وإهابه
فهمُ روحه تشع ضياء — فى شعاب الحياة بعد شعابه
عاش فى كدحه قرابة عشر — ين وخمس لم يشك يوما مابه
وأتى الموت فاستحى أن يرد — يه ببيت أطفاله دون بابه
فطواه الردى بعيداً عن الصبـ — ية ، حتى لا يفجعوا بمصابه

٭٭٭

رب كفكف دموعهم بسَرِىّ — فيواسيهمُ بفيض ثوابه
رب بصرهم سبيل رشاد — أن يضلوا فى دهرنا من ذئابه
رب واجعلهم لمصر سناء — كل فرد يعزها بانتسابه
رب وارحم أخاهم أوسع الرحـ — مة ، فلقد فاض فى ربيع شبابه

عبد العظيم على قناوى